اقرأ

سهير القلماوي

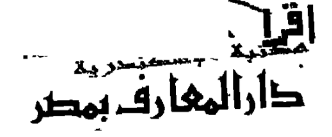
ثم غربت الشمس

دار المعارف بمصر

ثم غربت الشمس

سهير القلماوي

ثم غربت الشمس



اقرأ ٧٦ – سنة ١٩٤٩
سنة ١٩٦٥

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

١

مد وجزر

ثمانية قرون قضاها العرب فى إسبانيا حاكمين ، ثم أخرجوا منها ولم يعودوا إلى اليوم . لقد دخلوها فى سرعة البرق الخاطف ، فلم يمض بين عبورهم المضيق من المغرب ، وبين وصولهم إلى جبال البرانس ، بل إلى نهر الرون فى فرنسا إلا أشهر معدودات . ويقف التاريخ حائراً أمام هذه السرعة العجيبة فى الفتح ، فلم تكن البلاد تسمح بهذا ، ففيها من الحصون والجبال ما كان يمكن أن يعوق الجيوش ، وفى الجيش العربى البربرى قلة فى العدد وفى العتاد والدربة كانت كلها كفيلة بأن تعوق الفتح ، ولم يكن العرب ولا جيشهم البربرى يريدون أن يفتحوا البلاد بروح الجهاد فى سبيل الإسلام ونشره ، كما كانوا يفعلون فى الشام والعراق . كل ما فى الأمر أنهم أرادوا أن يعينوا والياً على

سبتة استنجد بهم ، وإذا البلاد تفتح ذراعيها لتتلقاهم فى ترحاب ، بل فى إغراء . ويسير طارق بن زياد وجيشه ، وموسى بن نصير وجيشه ، كل على حدة ، ثم يسيران فإذا الأرض تطوى تحت أقدامهما طياً ، وإذا هما يشارفان جبال البرانس وتجوزها سراياهم. أكانت حال الغوط وحدها هى التى أعانت على سرعة الفتح ويسره فوقفت أمام حصانة الأرض وقصور الجيش وانمحاء التحمس للفتح ، وانتصرت على كل هذه العوامل . أم أن الأرض الخضراء قد سحرت العرب ، فما كادت أقدامهم تلمس أرضها ، حتى سرت فى عروقهم حيوية لم يعهدوها فى سائر ما فتحوا من أرض الدولة الإسلامية . أما التاريخ فيقول : إن حال الغوط كانت فوضى ، وإن العبيد واليهود كانوا مضطهدين ، فرحبوا بالعرب ونظامهم ، أو بما سمعوا عن نظامهم ، وإن الملوك كانوا متناحرين مختلفين ، منشقين على أنفسهم ، وإن هنالك من الأحداث الخاصة ما دعا أحد ولاتهم إلى الانتقام ، فاستعان بالعرب . وأما القدر فيقول إنه أراد أن يصل العرب بأوربا ليوقظها . فوجد شعب إسبانيا أقدر على حمل الأمانة وإيصالها إلى الغرب من الأتراك ، فمهد للعرب سبيل الدخول ، ويسر لهم

هذه السبيل بما جعلهم يحسون فيها من حيوية ونشاط ، يدفعهم إلى الغزو والفتح حب الأرض التى تجلت لأنظارهم فبهرتها ومنحتها عذب الحياة وطيب الأثر .

وكما أشرقت الأرض على الفاتحين ، خلابة بنور الفجر الجديد، تبشرهم بالعهد العظيم الذى سيقضيه العرب على أرض إسبانيا ، فكذلك أشرقت الآمال فى نفوس الفاتحين، فأضاءت آفاقها . وإذا الأحلام تداعب رؤوسهم فى أن يفتحوا ويفتحوا من مثل هذه الأرض ما يمكنهم من الوصول إلى خليفتهم الوليد برا .

وماذا كان يمنع من أن يجعل موسى بن نصير البحر الأبيض كله بحيرة إسلامية . إن الفجر ليغمر القلب نشاطاً ، وإن الأمل ليملأ النفس حياة ، وإن كل شىء فى هذه الطبيعة الجميلة ليقول ولم لا ؟

ولكن الوليد يقول لا ، ارجع يا موسى ، وارجع يا طارق ، لا تغررا بالجيش ولا تستطيلا على الخلافة بما تفتحان من أرض . ونظر موسى وطارق إلى الشمال . إلى الجبال الوعرة ، إلى قسطنطينية غرب أوربا الطبيعية . أليس من المحتمل أن يقفوا

بجبال البرانس كما وقفوا بأسوار القسطنطينية فلا تستجيب لطرقهم؟ قد يكون . ولكن الخليفة يأمر بالعودة ، وفى النفوس حزازات وضغائن ، وعلى الأسلاب التى حصل عليها الجيش خلافات ونزاعات . هيا يا طارق نسوّ أمور الدنيا هناك فى بلاط دمشق . أما هذا النعيم فليعد إليه منا من هو أحق به .

وعاد الفاتحان إلى دمشق لكى لا يعودا إلى الأندلس أبداً . لقد فتحا الأرض ، ومهدا للعرب والبربر أطيب مقام ولم ينعما بشىء مما فتحا ، ولم يذوقا من هذه الأمانى العذاب إلا التشوق إليها . عادا ليلقى كل منهما شقاءاً وتشريداً وموتاً . لقد فتحا باب الجنة ، كالبواب حرمت عليه ما فى جنته من ثمار . وتركا الباب مفتوحاً يلجه من قد أراد له القدر أن ينعم بالأرض الطيبة.

وهكذا افتتحت الأندلس كتابها فدلت أولى الصفحات على سائره . أمل باسم مشرق واسع يملأ الكون ، ولكنه سرعان ما يخبو مرتطماً على صخرة الواقع المرير وأى ارتطام .؟

لقد دخل العرب إسبانيا فى سرعة البرق الخاطف ولكنهم عانوا الشقاء ألواناً فى سبيل ألا يخرجوا منها ، وخرجوا آخر الأمر محزونين . كم شهدت البلاد صرعى أمانيها العذاب رجالات

ورجالات أمدتهم الأرض بوفرة من حياتها ، ثم عادت لتمدهم بوفرة من شقائها . إن القدر قد كتب على أهل هذه الأرض ألا يذوقوا من ألوان الحياة إلا أعنفها ، تسعدهم سعادة تفوق سعادات البشر ، وتشقيهم شقاء يفوق شقاوات البشر .

لقد امتد الأمل بخلفاء موسى بن نصير فى ولاية الأندلس حيناً ، فما كانوا يكادون يقومون بالأمر حتى كان يفلت منهم . ومضى قرن من الزمان والحال لا تستقر ، حتى أتى مؤسس دولة بنى أمية فبدأ فى تكوين الدولة . ومضى على هذه الدولة ثلاثة قرون بين تأسيس وتمكين واضمحلال . وإذا السماء تصفو ، وإذا نور النهار يعم العالمين ، وإذا أوربا تلتفت لترى منارة للمدنية قد رفعت تضىء لها أطراف الظلام ، وإذا هم يهرعون إليها ، فماذا يرون ؟ أرضاً قد أثمرت وامتلأت بالزراعة حياة ، وفضاء قد ازدان وامتلأ بالعمارة جمالا ، وقوماً قد عاشوا فى ظل الطبيعة وحمى الدور قد أمنوا واطمأنوا وسعدوا ، ورفرفت على الأرض والفضاء والناس أضواء من العلم والمدنية ، فأضاءت لهم الأرض والسماء جميعاً ، فأخذوا يرشفون من مناهل هذا النبع الجديد وفى حلوقهم شوكة ، وفى عيونهم قذى . ماذا لو استطاعوا

أن يكونوا هم أصحاب هذه الأرض وأهل هذا النعيم .

وبدأت مطامع أوربا فى الاستيلاء على الأرض الخضراء منذ أيام الأمويين . والعرب لاهون عن المطامع مشغولون عن الأحقاد ، بالبناء والتعمير والزرع ، ونشر العلم ، وإحقاق الحق ، وإقامة شعائر الدين . والطبقات المضطهدة تنفث فيها الأمة الحياة ، فإذا هى حركة ونشاط . فعمت الحياة الجزيرة كلها . وبالشمال وبالغرب أسد رابضة استفاقت مما قد صدمت به ، وأخذت ترنو إلى هذا الوطن الذى كان ، فهى أحق به لأنه وطنها . ومهما يكن إخاء العرب لمن ساكنوهم من الإسبان ، ومهما يكن إقبالهم على الحياة فى الأندلس ، وحبهم لها واتخاذها وطناً ، واتجاههم نحو تعميرها لا استعمارها ، فإن حقيقة واحدة كان الإسبان يرونها فيهم ، هى أنهم مغتصبون . أكان الباعث على هذا اختلاف الدين ، واختلاف الجنس ، واختلاف اللغة ، أم كان الباعث هو انفرادهم بهذه الأرض الخصبة التى استولوا عليها فزادوا خصبها وحياتها ، وفاضت هى عليهم نعيماً ويساراً لا يقابلهما عند من انحازوا إلى الشمال والغرب إلا القحط والفقر ؟ قد يكون كل هذا ، وما كان هذا كله ليسىء إلى العرب

فى شىء ، لولا أن من وراء إسبانيا المستيقظة كانت أوربا كلها تستيقظ ، وكانت أوربا كلها تنظر إلى نفحات هذه المدينة العربية فتشتاق إليها . وبدأت سياسة أوربا تشتبك اشتباكاً وثيقاً بالإسبان . أما ألمانيا فطمعت فى السيطرة على الأرض ، وأما إنجلترا فطمعت فى الاستيلاء على البحر ، وأما إيطاليا فقد طمعت فى أن يمتد سلطان المسيحية ، وأما فرنسا فقد اشتاقت أن تتسع رقعة النفوذ . ولم تكن الحكومات وحدها ، أو الأمراء والملوك وحدهم ، هم الذين يطمعون ويشتاقون . وإنما إلى جانب الحكومات والملوك طبقة خطيرة فى ذلك العصر ، هى طبقة رجال الدين ، وقد أخذت تقوى وتشتد بالمتطوعين والمتبرعين ، فإذا كل هذه المطامع يذكيها شعور قوى قامت عليه حياة أوربا فى هذه القرون، وهو التعصب الدينى . وأذكى هذا التعصب كل هذه الحركات السياسية فى أوربا ، فإذا قوة تتبلور مرت عليها القرون ، فأخذت شكلها النهائى ، وكان لها وحدها النصر آخر الأمر .

وما كادت قرطبة عاصمة الدولة الأموية الأندلسية تسقط فى يد الإسبان ، حتى دق الناقوس المزعج لأول مرة فى حياة العرب

فى إسبانيا ، وإذا هذه الغارات والمناوشات ، التى لم يكونوا يفكرون فيها ، فقد كان يقضى عليها قبل أن تصل أخبارها إلى العامة أحياناً ، تتخذ لوناً آخر . إنها لم تكن صحوة موت عند الإسبان . وإنما هى بشير حياة جديدة ، هى فاتحة وليست خاتمة . وكما تقوى الإسبان لمجرد سقوط العاصمة العظيمة وإن تكن بعيدة نوعاً ما عن الأرض المرغوبة فى إسبانيا ، من حيث الخصب والعمران ، فإن العرب قد أيقنوا بحسهم المرهف وعقلهم المرن ، أن هذه فاتحة الشر .

ومنذ سقوط قرطبة يأخذ تاريخ العرب فى إسبانيا لوناً قاتماً حزيناً . ومنذ سقوط قرطبة تغيرت نفسية العرب وتغير إحساسهم نحو هذه الأرض التى أحبوها . فإن فقد جزء من الشىء يذكى الحرص على سائره . وإذا بنا أمام ظاهرة حية هى حب العرب لأرضهم حبا لم يسبق له نظير . تجلى ذلك فى أعمالهم وأقوالهم وأدبهم بل فى صلاتهم أيضاً . ومزجوا حبهم للأرض بحبهم للدين الإسلامى المتمكن على هذه الأرض . وإذا الدفاع عن الأندلس يأخذ صورة كانت يجب أن تكون فى الفتح وهى الإحساس بالجهاد فى سبيل الإسلام . فالعرب الفاتحون لم يحسوا أنهم

بفتحهم ينشرون الإسلام، ولكن العرب المدفوعين عن الأرض أحسوا أنهم لا يضحون فى سبيل الأرض وحدها وإنما فى سبيل الدين قبلها . فخروج العرب من إسبانيا معناه هزيمة للإسلام، ولم يكن الإسلام قد هزم عن أرض فتحها إلى اليوم . وهالت النتيجة البعيدة من خلل القرون عقول العرب وإحساسهم، فأكبروا من سقوط قرطبة إكباراً عظيماً، ورثوها رثاء حاراً حزيناً، ونظروا إلى يوم تعاد إليهم أو يعودون إليها على أنه أمل مرجو قريب .

وهنا بدأ شعور العرب بالدول الإسلامية المجاورة الناشئة يصبح إحساساً واضحاً . فعلى الشاطىء الآخر من الزقاق دول تتكون ويظهر لها سلطان واضح . وهؤلاء إخوان فى الدين ولكنهم أيضاً أركان فى دولة واحدة ، فهؤلاء كالأندلس تابعون شكلا للدولة العباسية القائمة فى بغداد . لذلك اتجه نظر العرب نحو هؤلاء وبدأت الصلة بينهم تتعدى الصلات العادية بين الدول المجاورة فى تلك الأحايين ، فإذا عهود تؤخذ ومواثيق سياسية تبرم . وقد كانت الدولة الأموية تكاد لا تعير شمال إفريقيا اهتماماً لما أنست من قوتها ، أما الآن وقد زال سلطانها فإنها قوة تستطيع أن تفيد وقت الحاجة .

وتكررت مأساة قرطبة وسقطت طليطلة العاصمة الغوطية العظيمة، ثم سقطت المدن الأندلسية الكبيرة الواحدة وراء الأخرى وأخذت حيوية العرب تزداد بتزداد الخطر واستفحاله، وأخذت هذه الحيوية تفيض فى كل باب وكل مخرج إفاضة لم نألفها من قبل . وفى ظل الاضطراب السياسى أخذت العلوم والفنون تزدهر ازدهاراً قوياً وأخذ هذا الازدهار يلفت إليه الأنظار ويثير فى النفوس الطمع والحسد .

وفى أثناء ذلك كانت الحمية الدينية تزداد فى أوربا وبدأت النفوس تستعد لحروب دامية فى سبيل الدين ، حروب دامية بين المسيحية والإسلام تتخذ ميدانين فى وقت واحد . الميدان الغربى فى إسبانيا وكان الأسبق، والميدان الشرقى فى الشام وفلسطين وكان الأعنف . وأخذت هذه الحمية المتعصبة تستمد من حال الأوربيين حوافز . فثراء ضخم من الممالك الناشئة ، وهمجية عقلية لم تجعل أعمال العنف تقف عند حد بل أمدتها قوة وقسوة ، ونفوس طلقة تكاد تكون على فطرتها انتشر فى قلوبها الدين بمعناه الضيق فزادها إيماناً متعصباً جامحاً . يرفرف على هذا كله ظل واسع من إحساس بالقوة والحياة يريد أن يمتلك

ويتوسع فى الامتلاك ، يريد لهذه الممالك الناشئة سلطاناً ونفوذاً.
ولما كانت هذه الممالك تحس كل منها لنفسها ، رغم اتحاد الدين ، كياناً خاصا ، فقد ألهب التنافس عجلات القطار فإذا هو ينهب الأرض نهباً لا يلوى على شيء .

وشهدت أرض إسبانيا هذه الثورة العنيفة من الحياة ؛ حياة إسبان هاجمين يريدون أن يستخلصوا أرضهم ، وقد أحسوا دبيب الحياة قويا فى عروقهم ؛ وأحسوا سنداً قويا من هذه الأمم الفتية المتعصبة التى تدفعهم ، وحياة عرب مدافعين عن أرض ملكوها قروناً وأصبحت لهم وطناً لا يعرفون إلا إياه . وقد أذكى حماس أوربا لدينها حماس العرب لدين عرفوا ثماره الطيبة وذاقوا سعادة الفىء إلى ظله ، وإذا هم أيضاً يندفعون يسندهم تراث ضخم من التاريخ والرقى ، وتعاونهم ممالك فتية أخذت تنشأ فى شمال إفريقيا عمادها جنود برابرة لهم شهرتهم هم أيضاً فى القوة والحروب .

وأخذت بوتقة إسبانيا تصهر هذه الحيوية المتدفقة لتخرج لنا نتيجة الجهاد ، ولكن عوامل فى الطرفين كانت تعوق النتيجة فتؤجلها أعواماً بل قروناً .

ففى شمال إفريقيا اضطراب داخلى شديد ، وفى شمال إسبانيا

اضطراب داخلى لا يقل شدة مبعثه فورة الحياة . كل أمير يريد أن يكون ملكاً ، وتركيب الحياة فى عصره لم يكن يمنع من ذلك . فمن هو هذا الملك القائم ؟ إنه قائد حربى أو ابن قائد حربى استطاع أن يجمع طائفة من الجيش حوله فغزا وانتصر . وما أسهل أن يجمع الشجاع طائفة من المحاربين حوله . وما أكثر من يحسون الشجاعة وتدفعهم الحياة إليها ، وما أسهل ما ينتصر الشجاع ، وما أسهل ما ينصب نفسه ملكاً أو خليفة أو سلطاناً كما يحلو له أن يتسمى . وتعددت ممالك إسبانيا كما تعددت ممالك شمال إفريقيا ، بل كما تعددت خلافات العرب وممالكهم فيما ظلوا يحافظون عليه من أرض .

واضطرب التاريخ واختلط ، وراح يسجل مظاهر هذا الفيض من الحياة ، فعجز ، فرسم لنا صورة لا تريد أن تدلنا على الحقيقة بمقدار ما تريد أن تشعرنا بها . لقد كانت الحال فوضى فإذا التاريخ لا يشعرنا إلا بالفوضى ، لا واصفاً إياها أو راسماً لها ، وإنما محاولاً أن ينظم هذه الفوضى معلناً إفلاسه فى ذلك .

وركن العرب إلى ملوك شمال إفريقيا حيناً من الزمن ، حتى أحس هؤلاء من أنفسهم قوة وسلطاناً فأخذوا هم أيضاً يطمعون

فى الأرض الخضراء ، فقد كانت تغريهم إذا ما قارنوا بين تربتها وما لها من خصب وما عليها من عمران وبين تربة تونس أو مراكش وما لها من جفاف وما عليها من عمران . وإذا حادثة ملكَ إشبيلية تبرز أيضاً مأساة فى تاريخ العرب فى إسبانيا . فقد ساق يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد أسيراً إلى قرية من قرى المملكة فى شمال إفريقيا ، إلى أغمات على حدود مراكش ، ليقيم لشمال إفريقيا دولة على أرض الأندلس .

وبعد أن كانت إسبانيا ومن يساندها من ملوك أوربا هى التى تطمع فى الأرض الطيبة ظهر فى الأفق طامع جديد لم تكد تتبين آماله التى تجيش فى صدره حتى تحققت على الأرض . قيل ولما ليم ابن عباد على الاستعانة بملوك شمال إفريقيا قال « رعى الإبل خير من رعى الخنازير » . وكفى بملوك الأندلس داءاً أن يروا أنفسهم لا يفاضلون بين السيادة أو الرعى ، وإنما يفاضلون بين رعى الإبل ورعى الخنازير . ومات المعتمد ميتة ذلّ وفقر فى قرية بعيدة ، فإذا صورته تلقى ظلالها على ما بقى من تاريخ العرب فى الأندلس . لقد أخذ ملوك العرب يحتاطون من هذا المصير . وبعبارة أخرى أخذوا لا يطمئنون إلى هؤلاء

الذين يناصرونهم فى الدين . وفى الوقت نفسه أخذ التنافس الذى مصدره حب الاستيلاء على أرض الأندلس يجد لنفسه حياة فى أرض جديدة هى شمال إفريقيا .

وأحيطت الأرض الطيبة بدائرة من الطامعين مستحكمة الحلقات ، وجعل هذا يلقى أصداءه القوية على أحوال الأندلس وملوكها . فإذا الملك الذى يستطيع أن يصد إلى حين كل هذه الأطماع لا يكاد يظفر به الزمان . فكثر لذلك سخط الناس على ملوكهم ، وكثر تطلعهم إلى الملك الجديد ، أو كثر تطلعهم إلى الأمل الجديد . وكلما خيب ملك ظنهم تطلعوا إلى آخر ، وأصبحوا فى تطلعهم ولهفتهم حائرين . وإذا هم ينقسمون كما لم ينقسموا من قبل ، وإذا هم يتفرقون كما لم يتفرقوا من قبل ، وإذا هم حيارى لا يعرفون ماذا يفعلون ، لا يتاح لهم الأمن لأنهم أرادوه أو جاهدوا دونه ، وإنما يتاح لهم الأمن إذا اشتد الاضطراب شمالا أو جنوباً فشغل الطامعون بأنفسهم عنهم . ولم يكن هذا قليلا ولكنه كان قلما يشغل الجميع . فبينما يتناطح ملكان من ملوك إسبانيا كان الثالث يكون متفرغاً فيلتفت إلى العرب وينتهز لنفسه الفرصة . وكذلك كانت الحال فى شمال إفريقيا . فليس

معنى انشغال المتنافسين بأنفسهم أن العرب يراحون ، وإنما انشغالهم كان كثيراً ما يطمع فيهم الطامعين من الإسبان فيستغلون الموقف بأن يهاجموا العرب ويتقووا بهم .

وأخيراً تقلصت الدولة العربية الأندلسية إلى إقليم صغير ، إقليم غرناطة ، وشهد التاريخ الأندلسى أروع الصفحات فى هذا الإقليم الصغير ، فلنقف به وقفة خاصة .

٢

غرناطة

ما أعرف بلداً خلد الشعراء والكتاب وصفه ، وقد حملوا هذا الوصف عواطفهم الجائشة ، بقدر ما خلد العرب غرناطة . فلقد وصفوها فبز وصفهم وصف سائر المدن ، لا فى الدقة ولا فى الجمال ، ولكن فى العاطفة القوية التى كانت تلهبه وتملؤه حياة .

وصفوا غرناطة كما تصف الأم وحيدها قد تعرض للخطر ، فتراه أجمل ما يكون وأحب ما يكون ، بل إنها لترى الحياة كلها قد تركزت فيه ، ولم تعد تتعداه لشيء سواه .

وصفوا غرناطة شعراً ونثراً لا يقل عن الشعر عاطفة ، ووقفوا بالمدينة نفسها وبما حولها من أنهر وجبال ، وقفات كلها الحسرة والحنين ، وكلها الأمل الحى الذى لا يجد من الواقع ما يحييه ، وإنما

يستمد من القلب والحب حياته .

وصف العرب غرناطة وهى كل ما لهم من هذه الرقعة الواسعة من أرض إسبانيا . لقد أحب العرب أندلسهم مدينة مدينة ، ورثوها بأجمل شعر كلما كانت تنتزع منهم قطعة قطعة . ورأوا فناء العالم ، وكل ما يجيش فى النفس البشرية من إحساسات حزينة نحو هذا الفناء ، مجسماً فى فناء هذه المدن وزوال حياتهم عنها ، فوقفوا بها كما كان العربى الجاهلى يقف بالأطلال يذوب حسرة من الذكريات ، ويضطرم حزناً من لوعة الشوق وتذكر الفناء . ولكن وقوفهم بغرناطة فاق وقوفهم بأى بلد من البلدان بل أى طلل من الأطلال . ذلك أن وقوفهم بها كان آخر ما وقفوا ، بل كان حياة كاملة لهذه الآلام فى النفس ، بدأت منذ أولها وانتهت بنهايتها . بدأت منذ دخلوا غرناطة وأحسوا الأمن فيها واطمأنوا إليها ، وانتهت بسقوط غرناطة على يد إيزابيلا وفرديناند . لقد بدأ حبهم الحزين لغرناطة منذ اتخذوها ملجأ وملاذاً . فلقد سقطت مدنهم جميعاً ولم يبق لهم غيرها ، فأحبوها وركزوا آمالهم فيها . وكانت غرناطة تثير فى نفوسهم الحياة والأمل إذا ما قالوا لأنفسهم إنها أخصب بقاع إسبانيا ،

وإنهم فتحوا إسبانيا وهم لا يملكون فيها شبراً ؛ فكيف لا يستردونها وهم يملكون منها غرناطة . ولكنها كانت تثير أضعاف هذه الحياة وهذا الأمل أحزاناً وحسرات ، عند ما يرون السحب من الواقع تتكاثف على شمسهم وكأنما تدفع بها نحو الغروب . وكانت الشمس . تبرز من بين السحب أحياناً فإذا جمالها لا يستطيع إنسان أن يصفه . فما تثيره فى النفس ليس من جمال المنظر وانعكاس أضوائه على السحب فحسب ، وإنما هو الشوق والخوف يجتمعان فى النظر إليها ، هو الأمل واليأس يتلاقيان فى كل ذرة من ذرات شعاعها .

تقع غرناطة فى إقليم ألبيرة أجمل أقاليم الأندلس وأكثرها خصباً وماء ، وقد اعتصم الولاة العرب فى أولى مناوشاتهم بها عند ما جاء عبد الرحمن بن معاوية يريد أن يؤسس بالأندلس ملكاً ، فاعتصم الوالى الإفريقى بها حتى هزم ، وما ذاك إلا لمناعتها ، إذ أنها تحتمى فى ظل سلسلة من الجبال عظيمة تعرف باسم البشارات .

واتخذ العرب هذا الحصن من غرناطة ، وما حوله من حصون تحيط به فتزيده منعة ، ملاذاً أكثر من مرة كلما آن لدولة

أن تقوم بالأندلس إثر أخرى . فلم يكن التجاء الدولة إليها آخر الأمر شيئاً عجيباً ، فما كان فى هذا الجزء من الجزيرة أحصن مكاناً منها ، بل لقد ظلوا معتصمين بجبالها حتى بعد جلاء بنى الأحمر عن الأندلس .

وتاريخ هذا الإقليم من حيث خصب أرضه ، وثراء أهله ، كثير الأخبار . فقد سكنه منذ أول الفتح جند دمشق ؛ أى جند عاصمة الدولة الفاتحة . اختاره لهم قومس الأندلس ، وزعيم عجم الذمة ، كما كانوا يسمونه ، لما طلب إليه والى الدولة الإسلامية الشرقية أن يعينه على إسكان الفاتحين وتفريقهم عن العاصمة . قال إنه اختاره لهم لأنه أشبه طبيعة بالشام موطنهم . وسواء أصح هذا السبب أم لم يصح ، فالنتيجة واحدة ، وهى أن هذا الإقليم ، أجمل بقاع إسبانيا طبيعة وأوفرها خصباً ، وإلا ما فضل به جند الدولة الفاتحة ، بل ما شبه بأرض الشام فى الجمال والخصب .

وكان الإقليم ممتازاً بمن كانوا يسكنونه من الأغنياء . فقد كانت فيه كنيسة عظيمة تشهد بثرائهم وبعلو كعبهم فى المدنية والفنون . واضطر يوسف بن تاشفين تحت ضغط الفقهاء أن

يهدمها ، فقد كانت أعمال التعصب التي كان يقوم بها نصارى إسبانيا فى الشمال ، بل نصارى أوربا فى الشرق ، تنتزع استجابة من نوعها عند العرب ، لم يكن يستفزها شيء عند الفتح ؛ وإلا فإن هذه الكنيسة ظلت فى حوزتهم نحو أربعة قرون . وكان يقوم بها إلى جانب الكنيسة مسجد يؤمه الأشراف ، فكان المؤرخون يشيرون إلى كثرة هؤلاء الأشراف الذين كان يضمهم المسجد أيام الجمعة . بل إنهم كانوا يصفون هذا بالصور المادية التي كانت تتجلى فى ركائبهم وثيابهم ، مما يدل على الثراء والشرف .

ولعبت حصانة غرناطة فى التاريخ دوراً ، قبل أن تتكون بها المملكة العربية المشهورة ، ليس بيسير . فكثيراً ما كان يرتد الخارج على حكم من فيها ، أو المنتقم منه ، أمام حصانتها فيعود من حيث أتى . وليس ارتداد رزمير أيام يوسف بن تاشفين حادثاً فريداً ، وإنما هو إعادة وتكرار . وكثيراً ما كان أهل ألبيرة جميعاً يعتصمون بغرناطة فى الفتن ، كما فعلوا أيام الفتنة البربرية فى مستهل القرن الرابع . وكثيراً ما كان الغزاة ينظرون إليها على أنها قبضة الأندلس ؛ وليس قول ابن غانية للمرابطين «الأندلس

درقة قبضتها غرناطة ، فإذا تخشمتم يا معشر المرابطين القبضة لم تخرج الدرقة من أيديكم » إلا تشبيهاً يصور لنا إلى أى حد كانت تعتبر غرناطة مفتاح الأندلس .

لو لم يكن لغرناطة ميزة إلا حصانتها لكانت كافية أن تثير فى نفوس العرب حبا لها . فهى التى ستحميهم من العدو الذى تنمر لهم وأخذ يذيقهم من العذاب ما لم يفكروا هم أن ينزلوه به يوم كانوا يحكمونه . ولو لم يكن لغرناطة ميزة إلا موقعها الجغرافى من الأندلس بحيث تصور على أنها مفتاحها فى الدخول ، لكفى ذلك لكى يحبها العرب من أجله ، فهى إذن مفتاح الأمل فى استرداد ما قد أخذ منهم ، والرجوع إلى سابق عزهم وغابر مجدهم على هذه الأرض الطيبة .

ولكن إذا ذكرنا إلى جانب هذا طبيعة جميلة ، تحبب الغريب فى هذه البقعة من العالم ، حتى إنه ليود ألا ينزح عنها ؛ استطعنا أن نفهم لماذا أحاط العرب هذا الإقليم بكل هذه العواطف الجياشة فى وصفهم له . انظر إلى قولهم إن نهر الشنيل الذى يحيط بها أجمل أنهار العالم . ثم انظر كيف يفاضلون بينه وبين نهر النيل الذى يشبهه لفظاً وقد شهر فضله فى التاريخ

القديم والحديث . يقولون إن فضله على النيل شين ، والشين معناها الألف ، فهو أفضل من النيل ألف مرة . قال ابن زمرك :

شنيلها مد منه نيل   والشين ألف لمستنيل

وانظر إليهم كيف يعللون اشتقاق الاسم غرناطة من منظر العاصمة نفسها يقولون : « غرناطة فى سفح جبل هو شلير ، من سلسلة جبال البشارات ، بنيت على رابيتين مسترسلتين صعداً ، يفصل بينهما واد عميق ، والأبنية ممتدة على الصبب من الجانبين ، وآخذة برقاب السفوح إلى قعر الوادى ، على شكل يعطى للناظر هيئة الرمانة ، وبذلك سميت غرناطة ، ومعناها رمانة » .

ولم يكن نهر الشنيل وحده هو الذى يزين غرناطة ، بل لم تكن الأنهار وحدها هى التى تزينها ؛ وإنما فى شرقيها جبل لا ينقطع الثلج عنه صيفاً ولا شتاء ، ذلك هو جبل شلير ، الذى عزا إليه جغرافيو العرب ومؤرخوهم طيب هواء المدينة . يقول صاحب الإحاطة : « ولما كان شلير جبل الثلج ، أحد مشاهير جبال الأرض ، ينزل به الثلج شتاء وصيفاً ، وهو على قبلة منها على فرسخين ، وينساب منه ستة وثلاثون نهراً من

فوهاب الماء وتنبجس من سفوحه العيون ؛ صح منها الهواء واطردت في ساحاتها المياه وتعددت الجنات بها والبساتين » .

بل لم تكن طبيعة الأرض وحصانتها وموقعها الجغرافي هي كل ما قد حبب العرب في مدينة غرناطة ، وإنما عرفت غرناطة بازدهار فن العمارة في مبانيها . وكفاها فخراً أنها ما زالت إلى اليوم تحمل آثار قصر الحمراء الشهير ، لا بما قد حدث فيه من أحداث التاريخ ، وإنما بما يمثل من فن رفيع يطاول جماله الزمن . ولما زالت عن غرناطة ظروف حياتها ، وظروف إغرائها للعرب بالحب ، ظل هذا القصر إلى اليوم يثير في نفوس من قد عرفوا ما رمز إليه من حياة ، وما دار داخل جدرانه من أحداث ، ألواناً من الخيال والحب . وقف به الكاتب الأمريكي واشنجتن أرفنج ، فأخرج أروع كتاب في وصف سقوط الحمراء . ووقف بأخباره الكاتب الفرنسي شاتوبريان فأخرج لنا قصته المعروفة « آخر بني سراج » . ووقف به غير فنان فألهم شعراً ورسماً وموسيقى على مدى العصور .

وبذلك تجمعت الأسباب وتكاثفت الظروف على العرب لتثير في نفوسهم نحو هذه المدينة حبا فريداً بما قد اتصفت به

من صفات ، وبما قد رمزت إليه من معان . فزخر كلامهم عنها بإشارات جميلة تنطق بهذا الحب . وجعل الشعر الذى قاله شعراؤها بل الذى قاله شعراء سمعوا أخبارها ، يفيض بالحب الحار الملتهب .

انظر إلى المؤرخين عند ما يذكرون الوقائع المادية فى وصف غرناطة ، الوقائع التى لا تحتمل التفاتاً إلا إلى دقتها وصدقها ؛ ترهم لا يستطيعون إلا أن ينفسوا عن هذا الحب بشىء من الإشارة إليه . يقول لسان الدين بن الخطيب : « تحف المدينة (غرناطة) ، المعصومة بدفاع الله ، البساتين العريضة المستخلصة ، والأدواح الملتفة . فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة ، تلوح نجوم الشرفات أثناء خضرائه » . فإذا كان المقام مقام الكلام عن نجم المدينة وما اختط القدر لها من سعد أو شقاء أفاضوا فى وصف ما قد كتب القدر لها من السعادات ، لا إفاضة التقرير ، وإنما إفاضة الأمانى والأمل . بل إن لسان الدين فى كتابه « الإحاطة بأخبار غرناطة » لا يختم فصلاً إلا بالدعاء لها : « وقاها الله مضرة السنين ، ودفع عنها عباب الظالمين ، وعدوان الكافرين » . أو يقول : « غرناطة متبوأ

قطب بلاد الأندلس ، ودار الملك ، ومقر الإمارة ، أبقاها الله متبوأ الملك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها » . حتى حين يصف هذه الحياة الزاهية التي كان يراها فى الأندلس — حياة نسائها الجميلات يخطرن فى عز الرقى وترف المدنية ، يصفها وهو وجل خائف عليها من تيار الزمن فيقول : « وقد يبلغن من التفنن فى الزينة لهذا العهد والمظاهرة بين المصبغات والتنافس بالذهبيات والديباجات ، والتماشى فى أشكال الحلى ، إلى غاية نسأل الله أن يغضى عنهن فيها عين الدهر ، ويكف كف الخطب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا يسلبهم خفض لطفه ، بعزته وقدرته » .

ولما فارق المسلمون غرناطة أوت أسرة شهيرة من أهلها إلى قرطاجنة تمثل الصفوة الممتازة من أثريائها ، لم تذلهم الهزيمة ولم يفارقهم أمل النصر . فكان بنو سراج ، فيما قالوا : « يقيمون الصلاة كل خمسة أيام فى المسجد للدعاء برجوع غرناطة إلى يد الإسلام ، لا يرون من المغرب إلا ما يذكرهم بالأندلس وينتزع منهم الحسرات » .

وسنرى كيف صور الشعر هذا الحب الذى أحاط غرناطة ،

وهذه الحسرة التي كانت تؤججها فى نفوس من كانوا يفارقونها ولو إلى حين .

ولكن ما هى الحياة التي حييها العرب فى هذا الإقليم الذى أحبوه كل الحب ؟ وكيف استطاعوا أن يمكثوا فيه قرنين ونصف قرن رغم هذه الأخطار التي كانت تحدق بهم ؟ يرجع الفضل فى هذا إلى أمرين : أما الأول فهو ملوك بنى الأحمر الذين أقاموا هذه الدولة ومكنوا لها فى الأرض . وأما الثانى فهو أن الخطر الذى كان يحدق بهم شمالاً وغرباً وجنوباً وشرقاً كان كثيراً ما يشغل عنهم بنفسه .

كان بنو الأحمر من أسرة ترجع فى نسبها إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، أسرة عربية صميمة من الأنصار ، تستمد عزها من نصرة الإسلام وتاريخها فى الجهاد فى سبيله . وكانوا فى الأندلس يسكنون أرجونة من حصون قرطبة ، ولهم فيها سلف فى أبناء الجند يعرفون ببنى نصر . وكانت لهم وجاهة فى ناحيتهم كما يقول ابن خلدون عنهم ، وهو قد عاش أزهى عصور دولتهم . فلما ضعف أمر الموحدين وكثر الثوار بالأندلس ، وآن لدولة المغرب أن تعود أدراجها فتعبر الزقاق إلى أرضها ، استقل بمرسية ثائر اسمه محمد

بن هود ، فتغلب على شرق الأندلس . « وقام له كبير بنى نصر ومؤسس دولتهم محمد بن يوسف بن نصر ، فتصدى لهذا الثائر فهزمه ، واستولى على شاليس وجيان وغرناطة والمرية ، وبويع له عام ٦٢٩ ثم اتخذ غرناطة مقراً له وتلقب بلقب الغالب بالله » .

وما كاد محمد الأول من بنى نصر يستقر فى ملكه ويشيع الأمن حوله بما قد كتب مع الإسبان وبنى مرين فى مراكش من عهود ، حتى بدأت دولة غرناطة كيانها وافتتحت حياتها .

وسرعان ما وثب الملوك بهذه الدولة الصغيرة إلى الذروة . كانوا يحسون ضيق رقعتها ، ولكنهم كانوا يعرفون مدى الحياة التى ركزت فيها . فوثبوا إلى المجد وثباً ، شادوا وعمروا وآووا الشعراء والصناع والتجار والزراع ، حتى لم يبق شبر من أرض غرناطة لم يستغل كما يقول المؤرخون . وكان الإسبان فى بدء هذه الدولة ما زالوا منقسمين على أنفسهم ، فلقشتالة صاحب هو فرديناند ؛ ولأرغونة صاحب هو جيم . ولكن هذا الانقسام كان يسد ثغراته حماس دينى متعصب ، يغذيه البابا فى روما ، وتغذيه كل ممالك أوربا وخاصة فرنسا ، بكل ما أوتيت من سبيل . وكانت المصاهرة بين ملوك هذه المقاطعات فى إسبانيا بعضهم البعض ، وبينهم وبين أمراء فرنسا

وأميراتها خاصة مما جعل السلطان يتحد حيناً فيتقوى ، ويفترق حيناً آخر فيضعف . ولكن التعصب الديني فى كل هذا كان على أشده ، والتقهقر فى الرقى والمدنية كان ملحوظاً . لذلك ما كادت هذه البلاد من شمال إسبانيا تسترد حتى هرعت العناصر الصالحة كلها إلى دولة العرب الصغيرة الرقعة ليتنسموا فيها نسيم الحياة ونسيم الحرية . لقد بلوا العرب حتى فى حروبهم ، فإذا هم لا يحولون الكنيسة مسجداً إلا إذا دفعوا ثمنها لأهل ملتها ، ولا يستعبدون أحداً. أما الإسبان فقد استعبدوا المسلمين المدجنين ، الذين بقوا فى الأرض المستردة خاضعين للنظام الإسبانى ، وهدموا المساجد هدماً . بل لقد بدأت فى ذلك العصر تتكون لهم نظم دينية يتطوع فيها جماعة من الرهبان ، بل من الراهبات أيضاً ، ليحاربوا مستقلين فى سبيل طرد العرب من إسبانيا . ولما تقدمت السنين بدولة غرناطة وتقدمت السنين بالحروب الصليبية ، عانى المسلمون وحتى اليهود من الاضطهاد الدينى على أيدى الإسبان ألواناً . لذلك لم تكن تتاح فرصة لليهود ، وهم عنصر عامل مثمر فى حياة الأمم ؛ ولا للمسلمين ، وهم عنصر راق معتز بمدنية ودين قد عمّر الأرض ، إلا هاجروا إلى غرناطة . ولذلك توافدت

على المدينة وعلى الإقليم وفود الطبقة العاملة والراقية من الدولة الأندلسية، واكتظت كلها فى هذه الرقعة الضيقة، فملأتها حياة ونشاطاً وأكسبتها قوة وصموداً ، ثم أضفت عليها فنًّا وعلماً جعلاها قاعدة الدنيا كما كان يسميها لسان الدين بن الخطيب .

لم يبق فى أرض غرناطة شبر لم يستغل، ولم يبق بالأرض نبات لم تخرجه هذه الأرض، فاختلاف أجوائها من بقعة لبقعة جعل أرضها صالحة لإنبات نباتات المناطق الحارة والمناطق الباردة على السواء ، وانتشرت البساتين والجنات ، كما كانوا يسمون الضياع فى ذلك الحين ، فلم يبق شريف أو شبه شريف لا يمتلك جنة وارفة الظلال، قد تفنن فى زرعها ونباتها، لتكون متعة للناظرين. وبذلك اكتظت غرناطة أيضاً بمناظر الطبيعة الجميلة ، فأرهف الحس وأثيرت العاطفة ، فإذا الشعراء يكثرون ، وإذا شعرهم يتلون وتتعدد أشكاله .

وإلى جانب مناظر الطبيعة التى وقف بها الشعراء طويلا كانت العمارة الجميلة . كان قصر الحمراء بأبهائه وقاعاته ، وقد صور خلاصة ما قد وصل إليه فن العمارة العربية من رقى، بعد أن أخذ عن الفن الغوطى ما أخذ ، بل بعد أن أخذ من فن أوربا فى

العصور الوسطى أو فن الرومان فى آثارهم ما أخذ ، فخرج لوناً فريداً تبهر آثاره الناظرين اليوم، فكيف به يوم كان قائماً بكل أبهائه ورواثه والحياة فى جنباته تتردد .

أما الحياة التى كانت تدور فى قصر الحمراء فلقد كانت حياة صاخبة عنيفة ، هى صورة صادقة من الحياة السياسية فى هذا العهد . فإلى جانب الغناء اللاهى الجميل كانت حوادث القتل المريع . عنف ونشاط ، بحر تلتطم أمواجه ، ومد وجزر لا يقفان للراحة أبداً . وبالرغم من هذا وجد المدجنون واليهود فى هذا الوطن الصاخب أمناً لم يكن من الممكن أن يظفروا به عند نصارى الإسبان . فعاشوا حياتهم رغم الثورات العنيفة، يعمرون ويزرعون ويتاجرون، وأحداث السياسة تتقاذف بمصيرهم، فلايلهيهم ذلك عن العمل بل لايعكر ذلك عليهم أمنهم وحياتهم. لذلك تركت هذه الدولة الصغيرة الرقعة العاصفة التاريخ ، التى لم تكن تستقر الحال فيها إلا فترات معدودة على قصرها ، أثرها الخالد على مر الزمن . ذلك أن أهلها قد أحسوا فيها الأمن، وإن لم يوح به شىء إلا المقارنة بين حالهم وحال الممالك الإسبانية خاصة حولهم .

واتصلت الأسباب بين هذه الدولة وبين دولة بنى مرين فى مراكش اتصالا وثيقاً ، وانتقل أكثر من واحد من ملوكها لاجئاً إلى السلطان المرينى ، فآواه ونصره وأعانه على العودة أو أعاده بنفسه . وبلغ من شدة اتصال العون بين المملكتين أن السلطان المرينى كان يعين شيخاً لغزاة الأندلس يقيم فيها . وكثيراً ما كان شيخ الغزاة هذا مصدراً من مصادر تعقيد الحياة السياسية أو قلب أحوالها ، لأنه كان رئيس الجيش العامل دائماً من جيوش الدولة المرينية .

ولما كانت دولة غرناطة كثيرة الحروب كثيرة الإغارات على من حولها وخاصة فى بدء أمرها ، كان ذلك أيضاً مصدراً من مصادر ثرائها ، فكم اشترى الملوك الإسبان سكوتها أول الأمر بالمال . وكم عاد الجيش الغازى بالأسلاب ، ولكن أثر المال والأسلاب فى الحياة نفسها ما كان شيئاً إلى جانب أثر هذه الحيوية التى فاضت وقد نشطتها الحروب وملأتها زهواً وفخراً أو ملأتها خوفاً وترقباً .

وكان الخلاف كثيراً ما يقع بين الإسبان على ملك إقليم من أقاليم الأندلس إذا مات حاكمه ، أو مات وترك له ابنة يتنازع

أمرها القواد أو الحطّاب من ملوك الإسبان وفرنسا ، أو إذا ثار قائد أو حاكم ورفع راية العصيان ثم المطالبة بالعرش ، فينتهز العرب هذه الفرصة ليمالئوا فريقاً على فريق بغية الكسب آخر الأمر لو انتصر من يمالئون . وكذلك كانوا يفعلون مع ملوك إفريقيا الشمالية حتى اشتبكت سياستهم وسياسة جيرانهم شمالاً وجنوباً اشتباكاً عظيماً . بل إن الطريف أن بعض ملوك بنى مرين كان ينجد بعض ملوك إسبانيا على إسلامه ونصرانيتهم بدافع المروءة حيناً والكسب السياسى حيناً آخر . فلقد استنجد الفونس بيعقوب بن عبدالحق بن مرين فأنجده مروءة ، واشترط عليه وعلى ابنه سانشو من بعده حسن معاملة المدجنين وحمل ما أخذا من كتب العلم من المسلمين ، فيقال إنه حمل إليه ثلاثة عشر حملا جعلها نواة مدرسته التى أسسها بفاس عاصمته . وفى الوقت نفسه كانت هذه المروءة كثيراً ما تخفت وتختفى إذا استنجد بها الملك الغرناطى المسلم .

لذلك بدأ عرب الأندلس يعتمدون على قوتهم الداخلية فى العصر الغرناطى ؛ لا يلجأون إلى الاستنجاد إلا عند ما تكون هذه القوة الداخلية مما لا يعتد به . ولكن الذى جعل لهذا

العون وجهاً جديداً فى الدولة الجديدة هو أنه أصبح عوناً لا على استخلاص الأرض من الإسبان وإنما على استخلاص المملكة لملك غرناطى دون أخيه أو ابن عمه أو من يكون هذا الذى ينازعه على الملك .

لذلك كثر طلب هذه المعونة ولكن بشكل جديد ، شكل يؤذن بزوال الدولة ، فقد دب الخلاف فى داخلها دبيباً قوياً . ولولا هذا الخلاف الداخلى ما كان يمكن للإسبان أن يهزموا العرب هزيمة تامة أو أن يجلوهم جلاء تاماً عن الأرض التى أحبوها واتخذوها وطناً قروناً طويلة حتى أصبحت تدل عليهم فى عصرهم على الأقل . وما بدأ الخلاف يدب فى البيت المالك حتى أصبح الاستنجاد يتجاوز دول المغرب فوصل إلى مصر ، بل وصل فى آخر الدولة الغرناطية إلى تركيا . أما مصر فقد أغاثت بالكلام والخطب ، وأما تركيا وبغداد فلم تجب شيئاً أكثر من أنها فتحت أبوابها لليهود المهاجرين والمسلمين النازحين ترحب بهم فى دولتها القائمة ، لتفيد منهم وليعيشوا فى ظل دولة مهما تكن فهى مسلمة على كل حال .

وجاء على عرش غرناطة ملك عظيم ، ملك لم تمطره الحصون ،

كما كانت تمطر الحمراء بملوك من بنى الأحمر ، وإنما هو ملك خلف أباه المقتول ، أباه الذى قتله الزعانف والأعلاج وهو يصلى يوم عيد الفطر بين أهله وعشيرته ، تولى الملك مبايعاً من أهل المملكة ، متفاءلا بعصره كل التفاؤل . أما هو فقد كان يعرف مصير ملوك بنى الأحمر ، لقد قتل جده وعمه ، وها هو ذا أبوه يقتل شر قتلة ، بل إنه يعرف مصير مشاهير غرناطة أجمعين ، حياة صاخبة تنتهى على نحو لا تقود إليه أسباب ظاهرة، نهاية مفاجئة تأتى من السماء ، أو من الأرض ، ولكنها نهاية محزنة على كل حال . انظر فى حياة هؤلاء الذين ترجم لهم لسان الدين بن الخطيب فى كتابه الإحاطة مثلا ، فإنك لا تكاد تجد عظيما تفلت سيرته من هذا العنوان فى آخرها « محنته » ومحنته تلك معناها قتله على نحو ما . بل إن عظماء غرناطة ، قبل أن تصبح قاعدة دولية ، كانوا كثيراً ما يلاقون هذه المحن التى تنهى حياتهم ، وكثير من هذه المحن كان يتصل بحياة العلماء والأدباء والشعراء ، وكثير منها كان لبابه الاتهام بالكفر ، وكفى بالاتهام بالكفر سبباً للقتل فى هذا العصر الذى أيقظت فيه الحمية الدينية ، وألهب التعصب الأعمى

أسباب وأسباب . يكفى أن نذكر حروب الشرق ، وحروب إسبانيا بين النصارى والمسلمين التى قد عبقت الجو دخاناً أسود ، وأجرت الأرض أنهاراً حمراء ، لنعرف قيمة هذه التهمة ، بل لنعرف اضطراب أعصاب أهل العصر وجموح الحياة فى عروقهم .

جاء على عرش غرناطة محمد الغنى بالله ، فتفاءل الناس به ولكنه هو لم يتفاءل ، لقد نظر إلى شمس دولة الأندلس ، فوجد أن بينها وبين الأفق ساعة أو ساعتين من الزمان . أفيستطيع هو أن يعوق هذا الغروب ؟ أما هو فقد شك فى الأمر ، وأما الشعب عامة فلم يكن ينظر إلى المغرب ، وإنما كان يرى شمساً مشرقة ، ظنها هى الشمس تستقبل فجر يوم جديد ، فجر يوم سيسترد فيه العرب سالف مجدهم فى إسبانيا ، وكرر الشعب مرة أخرى ، لقد ملكنا إسبانيا فى بضعة شهور ، ولم نكن نملك فيها شبراً من الأرض ، أفلا نستطيع اليوم أن نستعيدها وغرناطة كلها فى حوزتنا ؟

وافتتح الغنى بالله عهده بأن مالأ الإسبان ، ومالأ بنى مرين ، وشغل الإسبان عنه ، وشغل بنو مرين عنه . فضمن الغنى بالله بضعة أعوام من الراحة والهدوء ، ولكن هذا العدو القريب ،

هذا الأخ غير الشقيق ، وقد استأثرت أمه بأكثر الأموال ماذا يفعل به ؟ فليمالئه هو أيضاً ، أسكنه قصراً منفرداً مرفهاً عليه ممتعة وظائفه ، فهدأ الجو الداخلى ، ولكن إلى حين . وقضى الغنى بالله أعواماً قليلة فى هدوء يصد غارات الإسبان القليلة الشأن من حين إلى حين .

ثم دق ناقوس الخطر من جديد ، ولو قد مد الله فى عمر لسان الدين بن الخطيب ، ليترجم للغنى بالله فلم يمت قبله ، لاستطاع أن يضع الآن كلمة « محنته » عنواناً لسائر الترجمة . فقد خرج الغنى بالله ، فيما يقال ، للنزهة فى جنة العريف ليعود فيجد الحاجب رضوان مقتولاً بين حرمه وبناته . لقد دخل الحمراء إسماعيل ونادى بنفسه ملكاً على غرناطة ، دخل إسماعيل وأمه ، بل ومال أمه من أبيه ، ودقت الطبول وهتف الناس للملك الجديد ، واستنجد الغنى بالله بأهل وادى آش فحموه ، ثم سار إلى السلطان أبى سالم المرينى ، فمكث عنده حتى انجلت المحنة . وهناك اتصل بابن زمرك ، وأتى به معه إلى غرناطة ، يوم استرد ملكه ودخل الحمراء منصوراً .

وهدأ الجو مرة أخرى ، وفرغ الغنى بالله إلى مملكته ، فكن

لها فى الأرض . وقد استعلى بقوته على دسائس السياسة وحيل القواد والغزاة . وفى أيامه اتسعت شباك التجارة مع إيطاليا وفرنسا ومصر والشام ، بل قال المؤرخون إن فى ميناء غرناطة المرية تلاقى تجار المعمورة كلها ، فملأوها حياة ونشاطاً وثراء .

واستنشق الناس من جديد جو الحياة صفواً ، وأحسوا الأمن والطمأنينة ، فانصرفوا إلى أعمالهم ، وخطت دولة بنى الأحمر أروع صفحات تاريخها ، فقد قصدها فى ذلك الحين علماء المسلمين وكتابهم العظام ، وفخرت هى بشاعرين ، بلسان الدين ابن الخطيب وبتلميذه عبد الله بن زمرك . وزار البلاط الغرناطى ابن خلدون ، ومكث فيه حيناً من الزمان ، ثم أحس اكفهرار الجو حوله ، فرحل بعد أن كان وصل إلى أن يكون سفير مملكة غرناطة عند ملك أشبيلية موطنه الأصلى .

وازدان قصر الحمراء بحياة خصبة مثمرة ، وأعاد إلى نفوس الناس ذكرى قصور خلفاء المشرق التى كانوا عنها يسمعون ، ولكن الحياة فيه كانت أكثر تنوعاً ، وأرق مدنية ، وأترف ذوقاً . ولما زف الأمير ابن ملك غرناطة إلى بنت سلطان فاس وفد لشهود الزينة فى غرناطة عدد لا يحصى من الأمراء والنبلاء ، إسبان

وإيطاليون وفرنسيون . فلقد كانت غرناطة وطناً للجميع . ولم تكن زينة الحمراء مؤقتة فى مثل هذه المناسبات ، وإنما كانت العمارة فيها قائمة أبداً ، وأبيات الشعراء تحفر على حجارتها فى المناسبات المختلفة ، وامتلأت أبهاء القصر وأروقته بآيات الفن النحتى ، وآيات الفن الشعرى أيضاً ، وكتب أكثر شعر ابن زمرك ، فيما يقال ، على الحجر ، على حجر قصر الحمراء ناطقاً بعز الغنى بالله ، وبآمال الشعب الغرناطى وبشخصية هذا الشاعر العظيم

ولكن الشمس آذنت بمغيب ، وإذ الغنى بالله يشغل أعواماً بحروب مع الإسبان وبسقوط دولة بنى مرين وقيام دولة بنى زناته فى المغرب . لقد عاد الغنى بالله من المغرب ، ولكن بغير الوجه الذى كان له . إن الشمس أقرب إلى الأفق مما كان يظن . وهذا صاحب قشتالة يأخذ منه الجزيرة ، ويستعين هو بالمغرب فلا يجيب ، فيستخلصها وحده ، ولكنه لا يطيق الصبر على هذه الحال ، فهو يهدم ثغور الجزيرة ، حتى لا تقع فى يد العدو مرة أخرى . وهكذا أصبح الملك المعمر بانى مجد الدولة الغرناطية يهدم من ثغورها ما يراه عورة حتى لا يقع فى يد العدو .

وكما سطر الغنى أروع صفحات الدولة الغرناطية ، فكذلك

سطر شاعره ابن زمرك أروع الشعر الغرناطى . وختم الملك وشاعره عصر الملوك والشعراء بالأندلس ، بل لقد ختما على هذا النوع من الصلة بين الشعراء والملوك الذى عرفته الدولة الإسلامية إلى اليوم ، فلم يقم بين شاعر وملك فى الإسلام ، بعد الغنى بالله وابن زمرك ، ما قام بينهما .

لقد كان الغنى بالله آخر ملك عربى عرفت الأندلس فى ظله أمن الاستقرار ، وطمأنينة القوة ، وتعاقب من بعد موته على عرش الحمراء ، ملوك ملأوا من التاريخ نحو قرن من الزمان ، ولكنهم كانوا كالشفق للشمس الغاربة ، لم يستدفئ بحرارتهم شعب ، ولم يضئ شعاعهم مدينة ، ولم يوح نورهم بفن . ملوك كقطع الشطرنج يقامون ويخلعون فى سرعة وتوال ، حتى اختلط أمرهم على المؤرخين أنفسهم ، ولم يقفوا إلا بعبد الله آخرهم ، فلقد كان آخر ما قد استطاع أن يبصر العرب من ضوء السماء ، ثم أظلمت السماء وطوى التاريخ صفحة ملك العرب بالأندلس . وأما ابن زمرك فقد كان آخر الشعراء ، طوى بعد موت الغنى بالله صفحة الشعر الأندلسى بنفسه ، وغرب مع الشمس : وإن ظلت أصداء أشعاره تشيع الشفق حتى أظلم الليل .

وظل العرب بالأندلس بعد انتهاء الدولة الغرناطية أكثر من قرن يقاومون معتصمين بجبال البشارات التى كانت تخرج منها ثوراتهم . واستغلتهم الدول الناشئة فى أوربا لمناوأة إسبانيا ، واستغلتهم تركيا ، يوم استولت على شمال إفريقيا ، فى إضعاف إسبانيا ، وساعدتهم بحراً ، حتى ضاق الإسبان بهم ذرعاً ، وأخرجوهم من الأرض إخراجاً . وساد إسبانيا من بعدهم ليل بهيم ، ورحل العرب إلى تركيا ، وإلى الشرق الإسلامى ، حاملين منارتهم . يبنون لأنفسهم مدنيات جديدة ودولاً أخرى . ولكن إسبانيا عانت من الظلمة بعدهم ما عانت . وعزا المؤرخون النصارى أنفسهم تقهقر إسبانيا إلى طرد العرب من أرضهم ، فقد كانوا لباب مدنيتها التى كانت تستطيع أن تطاول بها الأمم .

وليس يعنينا أمر إسبانيا هنا ، وإنما الذى يعنينا هو مظهر هذه المقاومة التى امتدت إلى آخر ما كان يمكن لأمل أن يمتد ، حتى بعد انتهاء الملوك ، وحتى بعد أن كان الإسبان يهدمون المساجد بالبارود على من احتمى بها من نساء وأطفال ، ظل أمل العرب فى البقاء فى إسبانيا قوياً ، وما غرابة هذا وإسبانيا موطنهم وإن أنكر الإسبان عليهم ذلك ؟ وكيف لا تكون لهم وطناً

وقد حكموها ، أو حكموا أخصب أجزائها وأكثرها عماراً ، ثمانية قرون من الزمان . ثم ظلت عصابات المورسك المعتصمة بالبشارات أكثر من قرن تحاول أن تثبت الأقدام ، حتى أخرج الإسبان آخر عربي من أرض إسبانيا .

ثمانية قرون قضاها العرب فى إسبانيا حاكمين ، وقرناً قضوه معتصمين ببشارات الأمل ، ثم أخرجوا منها ولم يعودوا إلى اليوم .

٣

ملك وشاعر

وقفت بآخر صورة للملك وشاعره فى الدولة الإسلامية ، فأوحت إلى أن أسجلها . وتأملت شعر الشاعر ، فإذا هو يسجل من أضوائها وظلالها ما تكفى الإشارة إليه ليحدث فى النفس آثار هذه الصورة . موسيقى خاصة من العواطف ، تثور فى النفس الإنسانية عند ما تأذن الشمس بالمغيب أو الحياة بالموت ، ألم الفراق ، وأمانى اللقاء الخائبة التى وقف الشاعر الجاهلى ليسجلها أمام الطلل الدارس ، ووقف الشاعر بل الفنان على مدى العصور ، وفى مختلف الأمم وبمختلف اللغات والأدوات ، ليسجلها أمام غروب الحياة وغروب الشمس . فوقفت بشعر الشاعر أبى عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك وقفات طويلة ، فإذا هو صورة خالدة من تلك الصور ، قد مزجت بين وقائع

الحياة وعناصر الطبيعة ، فجمعت جمعاً عجيباً بين الطبيعة والإنسان ، الطبيعة الغاربة والإنسان الفانى . وإذا الفناء والغروب فى شعره يختلطان اختلاط أمل وشوق ، لا اختلاط حزن ويأس .

ومن وراء شعره صورة الطبيعة الأندلسية بكل جمالها ، وصورة غرناطة بما قد أحيطت به فى عصرها وإلى اليوم من الحب والحنين ، وصورة الحمراء بما قد كان يدار فيه من حياة صاخبة عاصفة .

شاعر اتخذ حياة ملك وحياة أمة مكافحة فى سبيل البقاء وحياً . حياة ملك ، وحياة أمة قد أُريد لها المغيب ، فلم ترض بأن تغرب فقاومت . وسواء أنتهت المقاومة بالفشل أم بالنجاح ، فلقد كانت جميلة فى حد نفسها ، قوية بما تمثل من أفضل عناصر الحياة وغرائز الإنسان ، عناصر القوة وغرائز الكفاح ، يشوبها شىء من اليأس ، وغير قليل من الحزن ، ولكنه الكفاح المستمر إلى آخر رمق ، والقوة التى لا تريد أن تقهر .

آلت حياة الأندلس السياسية إلى اضمحلال ؛ ووقفت دولة غرناطة تصور الأمل المضىء فى ظلمات اليأس ، وتعلق بها العرب فى إسبانيا تعلق الغريق بما قد ظن أنه سينجيه من غمرات الماء ، فقبضوا عليها حريصين محبين خائفين مشفقين .

وحقق ملوك غرناطة بعض الأمل ، فلما لم يسيروا به إلى كثير ، قتلوا ليقوم غيرهم ممن كان يلوح فيه بعض الأمل ولما يخب . وقام الغنى بالله على عرش من حوله دماء ، دماء أبيه وجده وعمه ، ولكن الشعب تطلع إليه فى تفاؤل عجيب ، لقد كان الغنى بالله بدأ يسطر من صفحة حياته فى الجهاد فى سبيل الإسلام ما شجع العرب على أن يتعلقوا به .

وما كاد الغنى بالله يؤمن سياسته الخارجية والداخلية ، حتى أخذ يفرغ قليلا إلى شؤونه ، يريد أن ينهب الحياة نهباً ليبنى له ملكاً خالداً ، ففخم فى القصر وزوده بشاعر مجيد . وجاد الزمان فى عصره بشاعر فذ وسياسى بارع ، هو لسان الدين بن الخطيب ، فسارت مكاتبات لسان الدين وقصائده فى الآفاق تشيد بمجد الغنى بالله ، وترفع للملك منارة فى القلوب . وكان مركز الوزير الكاتب الشاعر فى ذلك العصر من أخطر المراكز وأعظمها شأناً . فلقد قامت الدولة على صلاتها بمن حولها من جيران ، فما كان لها أن تستطيع العيش فى عزلة وعلى أبوابها تدوى طبول الحرب ، وفى حصونها الجيوش تتقاتل .

وكان الوزير هو السفير الذى يستطيع أن يتكلم بلسان الملك ،

وهو الذى يستطيع أن يحمل الشروط ويحولها ويحاور فيها بالنسبة للإسبان ، وهو الذى يستطيع أن يستصرخ ملوك بنى مرين ، أو زعيم الزناتيين . ولم يكن الاستصراخ يريد برهاناً ، بقدر ما كان يريد إيقاظ حمية وبث حياة فى النفوس . ومن أقدر من الشاعر على ذلك ؟

ورفع الوزير لسان الدين من شأن ملكه ، وطبقت سيرته الآفاق . وكان إلى جوار الغنى بالله ، ملك إسبانى عالم ، يحب العلم ويشجع العلماء ، هو ألفونس ملك قشتالة ، لقبوه بالعالم Savio ، وقد فتح أبواب قصر قشتالة للعلماء مرحباً بهم . وباهى بمن عنده من علماء المسلمين ملوك الأسبان بل ملوك أوربا ، فقد كان يترجم علمهم ، وينشره فى الآفاق ، وكان هو نفسه يؤلف الكتب أو تؤلف له .

وسرت عدوى التأليف فى ذلك العصر فكثرت كتابة الكتاب . وهذا لسان الدين بن الخطيب يملأ الحمراء كتباً . والصلات الثقافية بين غرناطة وفاس على أشدها ، وشيوخ اللغة والفقه والدين والصوفية خاصة ، يملأون الأرض ، ويأخذ عنهم الناس علم هذا الدين الحبيب الذى اضطهدوا من أجله فازدادوا به

تعلقاً ، وعليه حرصاً . بل لقد كثرت كرامات الشيوخ الأولياء فقد اشتدت المحن ، وكثر ارتفاع أوجه الناس نحو السماء ، حتى لم يكن الخليفة نفسه ليحجم فى أشد الأزمات من مثل هذا الالتجاء إلى كرامات الأولياء . ألم يعد الغنى بالله إلى ملكه ببركة سيدى أبى العباس السبتى؟ كتب له لسان الدين ، وهو مخلوع بفاس ، قصيدة إلى ضريح ولى الله ، فكان ذلك عنوان رجوعه إلى ملكه ، بل إلى أن يحصل له من السعد ما لم يحصل لغيره . ولعل بالمغرب فى هذا الموضوع سرًّا ، فميل أهل المغرب إلى الاعتقاد بالكرامات بل بالسحر ميل معروف ، قد شهر عنهم منذ قديم ، ولسنا الآن فى موقف تحليل أسبابه ، ولكنا فى موقف إثباته ، للدلالة على نفسية هذا الشعب ، الذى كان يستنجد به ملوك غرناطة بما كان وزراؤهم ينثرون أو ينظمون ، بل نفسية هذه المملكة نفسها ، شعبها وملكها ، التى كانت تستنجد بالشعر والخطب .

لم يعد المجال مجال الشعر « أدرك بخيلك خيل الله أندلسا » أو « نادتك أندلس فلب نداءها » فقد كانت هذه القصائد تلقى ، وفى المغرب دول قوية فتية تدرك القول فتجيب أو

لا تجيب ، حسب حالها من السياسة . وإنما المقام اليوم مقام دويلات هي الأخرى كدول إسبانيا ، في حال فوضى وتنازع ، من منها يفوز بالسلطنة على شمال إفريقيا كله ، أبنو مرين ، أم بنو زناتة ، أم غير هؤلاء ممن قد شهروا بالشجاعة في الحرب ؟ وما أكثر من كان يشهر من بيوتات البربر بالشجاعة في الحروب .

لذلك كانت مكاتبة لسان الدين لاستنفار أهل المغرب ، أو مراكش ، مكاتبة ملؤها العاطفة الحارة ، والتنميق اللفظي ، فلقد كانت ترتكز ، أكثر ما ترتكز ، على استنفار الحمية الدينية ، والعصبية العربية ، لقد أصبح المقام حرباً دينية يستنفر من أجلها الناس ، فلم تعد القلوب تهفو للمحافظة على أرض الأندلس ، لصالح الدولة الأندلسية ، وإنما أصبحت تهفو لحماية الدين الإسلامي من هزيمة النصارى .

وبذلك توافرت الظروف على خلق الجو الذي يصول فيه الشاعر أي صولة . نفوس ساذجة مرهفة متعلقة بالدين ؛ وخطر يهدد هذا الدين وأهله . ونفوس مرهفة متعلقة باللغة ، وخطر يهدد أهل هذه اللغة .

وكما رفع لسان الدين لملكه ذكراً ، فقد رفع لنفسه هو أيضاً ذكراً عظيما .

قال لسان الدين فى الغنى بالله :

ملك إذا عاينت منه جبينه فارقتـــه والنور فوق جبينى
وإذا لثمت يمينه وخرجت من أبوابه لثم المـــلوك يمينى

ولكن شخصية الوزير الشاعر شخصية فذة متعددة النواحى ، قد ألقى التاريخ عليها أستاراً من التقدير أعمتنا عن كثير من حقائقها ، وأحيط اسم لسان الدين بن الخطيب بهالة من الإعجاب والإعظام ، أضاءت شخصيته ضوءاً يعشى الأبصار ، فلا تكاد تبصر من حقيقة ملامحه كثيراً . ولكن الذى أشار إليه المؤرخون ، وإن لم يعطوه حقه فى التقدير والخطورة ، هو أن هذا الوزير قد طمع فى أن يكون أكثر من وزير ، كان يطمع فى الاستيلاء على المغرب :

ولما غافل إسماعيل أخاه الغنى بالله ودخل الحمراء ، فاضطر الغنى بالله إلى أن يأوى إلى شمال إفريقيا ، فأوى إلى السلطان أبى سالم المرينى ، قام الوزير العظيم يستعطف السلطان لينجد الملك المخلوع ويعيده إلى غرناطة ، بقصيدة أبكت الحاضرين ، مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادى ونم به الزهر

إلى أن يقول :

بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى
بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوّى الذى ربى جناحى وكره
فهأنذا ما لى جنـاح ولا وكر
نفت بى لا عن جفوة ومـلالة
ولا نسخ للوصل الهنى لها هجر
ولكنها الدنيـا قليل متـاعها
ولذاتهـا دأباً تزور وتزورّ

وجند أبو سالم الجيش ، وأمر شيخ الغزاة بالأندلس أن يقوم ليقاوم إسماعيل وحزبه ، وعاد الغنى بالله على رأس جيش ، فقاوم وحارب وانتصر . ولكنه دخل الحمراء وفى صحبته رجل جديد لم يكن قد رآه القصر من قبل ، رجل مختصر الجرم ، والأعين بإطالة فوائده تشهد ، رجل قصير نحيف ، لا بالجميل ولا بالقبيح ، ولكنه هش خلوب عذب الفكاهة حلو المجالسة خفيف الروح ، شعلة من شعل الذكاء تتوقد ، تكاد تحتدم جوانبه. قال الناس : من

هذا؟ فقال لسان الدين : هذا تلميذى أبو عبد الله بن زمرك .
وشغل الناس عن ابن زمرك بالأحداث التى تحيط بهم ، وتركوه فى القصر يروح ويجىء لا يكادون ينتبهون إليه .

أما ابن الخطيب فقد علا شأنه ، ألم يكن له فى شمال إفريقيا ذكر ؟ ألم يكن سلطان المغرب يعظم من شأنه فى حضرة الملك الغنى بالله ؟ ألم يكرم السلطان المغربى الملك الغرناطى بسببه ؟ وامتلأت نفسه غروراً ، وازداد طمعه فى المغرب ، وحاول أن يلعب بالساسة والقواد . ولم تكن هذه أول مرة حاول فيها ذلك ، وها هو ذا يتفق والسلطان عبد العزيز على أمر ، يضمر ولا يعلن ، ولكن ليس فيه خير أحد إلا خيرهما . وأرسل السلطان عبد العزيز الأمير عبد الرحمن بن يفلوسن إلى الأندلس ، فولاه لسان الدين مشيخة الغزاة رغم أنف الكارهين . ولما جاء سليمان ابن داود ، وكان الغنى بالله قد وعده مشيخة الغزاة يوم يرده الله إلى ملكه أيام أن كان مخلوعاً ، صرفه عنها ابن الخطيب ، فاضطغنها فى نفسه وسار إلى جبل الفتح معتصما ، وأرسل عبد العزيز إلى الغنى بالله يريده أن يحتجز الأمير عبد الرحمن ، وقامت فى المغرب ثورة من عشرات الثورات التى كانت تقوم به ، فقد آن

••

لدولة أن ترث أخرى . واستطالت الحروب بين السلطان المغربى والسلطان المرينى ، وتدخل فيها لسان الدين إلى النهاية ، بل لقد أحس الملك منه نواياه فغضب عليه ، وأرسل السلطان عبد العزيز فى طلبه ، وكظم الغنى بالله الغيظ ، فأرسله إليه ، وأرسل السلطان فى طلب أهل لسان الدين ، وكظم الغنى بالله الغيظ مرة أخرى وأرسلهم إليه ، وهو يعلم أن لسان الدين كان يحرض عبد العزيز على غزو الأندلس . وكان ابن الخطيب كثيراً ما يوصى أهله بألا يقتنوا الأرض ولا الدور فى الأندلس ، لأنها دار قلعة ومنزل فرقة ، فلما ذهب إلى المغرب ، كان قد استعد لهذه النقلة من زمن بعيد هو وأهله . ودارت الحرب بين سلاطين شمال إفريقيا ، وحاول الغنى بالله أن يأخذ لسان الدين من السلطان بالهدايا الثمينة لينتقم منه ، فأبى السلطان أن يسلمه ورد أقبح رد . وحاول أن يأخذه من وريث السلطان لما مات، فأبى ورد أقبح رد . ولم يعد فى مقدور الغنى بالله إلا أن ينتظر .

وانتظر وتدخل فى النزاع القائم بين سلاطين شمال إفريقيا إلى النهاية ، وانتهز الفرص المواتية فوضع من ضمن الشروط التى اشترطها على السلطان أبى سالم نظير ما قد قدم من عون أن

يسلم إليه لسان الدين لينكبه وينكب أهله ، وأغار السلطان فى أواخر حربه ، بل أغار وزيره سليمان بن داود على أملاك لسان الدين بالمغرب فخربها . ثم وصلت رسل الغنى بالله لتنفذ انتقام الملك ، وصل الرسل فإذا على رأسهم الوزير الجديد تلميذ ابن الخطيب عبد الله بن زمرك ، وعقدوا للسان الدين المجلس المعهود ، مجلس المحاكمة بتهمة الكفر والإلحاد ، وإذا بعض كلمات من كتابه فى المحبة تتخذ تكأة فيعظم فيها النكير وينكل بالوزير القديم .

وقبل أن تسرى إليه يد الملك الغرناطى أو وزيره قتله سليمان ابن داود ، العدو القديم الذى اعتصم بجبل الفتح يوم صرفه عن مشيخة الغزاة بالأندلس ، والذى كان يكاتبه لسان الدين برسائل فيجيب بأخرى كلها تنفث الحقد والحسد والكراهية ، دس له الأوغاد فقتلوه ، بل حرقوا جثته بعد أن دفنوه . وعجب الناس من هذه الشنعاء التى جاء بها سليمان ، واعتدوها من هناته ، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه .

ووقف التاريخ من مسلك التلميذ من أستاذه وقفة عجيبة . فلقد سجل تاريخه وجهة نظر طرفى النزاع حول مأساة لسان الدين ،

أو محنته كما قد شاء أن يسميها بالنسبة لمن قد ترجم لهم فى إحاطته. أما ابن لسان الدين فقد سبه أقبح سب وجرده من الفضائل كلها حتى من فضيلة الشعر ، فزعم أن أباه هو الذى كان يكتب له قصائده ،حتى اضطر صاحب نفح الطيب أن يقيم الأدلة على استحالة ذلك ،فمن أقواله إن ابن زمرك أتى بعد ممات لسان الدين بأروع شعره ، فمنذا الذى كان يكتبه له ؟

وسجل وجهة نظر الطرف الآخر فى تاريخ ابن زمرك حفيد الغنى بالله ، فمدحه ومجده وكرمه ، وان يكن قد اعترف أن ميتة ابن زمرك قد أرادها القدر شراً من ميتة أستاذه . ووقفنا نحن بين الترجمتين وبين تعليقات المقرى التافهة عليهما حائرين أيهما نصدق . بل لقد تعدى الخلاف بين المترجمين إلى مسائل ما كانت تحتمل الخلاف ، تعداه إلى أصل هذا الشاعر التلميذ الذى نكل بأستاذه ، أو اضطرته الظروف أن يكون له اشتراك فى تنكيل ملك بوزيره . أما ابن لسان الدين فيقول إنه ابن حمار أو حداد بالبيازين ضرب أباه حتى مات . وأما ابن الأحمر فيقول إن أصله من البيازين وكان من وجوه الناس بها . أكان حقير الأصل أم رفيعه ؟ من يدرى ؟ فلقد لونت محنة

لسان الدين معلومات التاريخ عن ابن زمرك ألواناً متضادة، حتى لا نكاد نرى الحقيقة لولا شعره .

ولما عاد ابن زمرك بعد محنة لسان الدين كان أمره قد اشتد وقوى ، انظر إليه يفخر بصحبته للغنى بالله فيقول : « خدمته سبعاً وثلاثين سنة ، ثلاثة بالمغرب وباقيها بالأندلس . أنشدته فيها ستا وستين قصيدة ، فى ستة وستين عيداً ، وكل ما فى منازله السعيدة، من القصر ، والرياض ، والدثار ، والسبيكة، من نظم رائق ، ومدح فائق فى القباب والطاقات والطرر فهو لى » . ثم يقول بعد أن يصف كيف كان يؤاكله ويؤاكل ابنه ، وهما كبيرا ملوك أهل الأرض : « وفوض لى عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين . وصلح النصارى عقدته تسع مرات » . ثم يسأل نفسه وقد أحس سخط أهل زمانه عليه : « أنحسة فوض إلى ذلك ؟ »

وكأنما أحس الزمن أنه بإزاء آخر شاعر يتصل بالملوك صلة وزارة وصداقة ، فأوحى إلى الغنى بالله ، أن يحفر شعر ابن زمرك على الحجر ، لتظل آثاره إلى اليوم موحية بهذه الذكرى ، ذكرى الملك العظيم ، قد اصطفى شاعراً فذ الذكاء ، ففوض إليه كثيراً

من أمور الدولة ، وجعله كاتم سره وصديقه .

ولكن هذه الصورة ليست صفواً كلها ، فقد كانت هى أيضاً تمتاز بجمال الغروب ، فقرب الشاعر من الملك يثير الحسد والحقد فى نفوس الناس ، وإقبال الدنيا على أحد ، يعز على كثير أن يروه فلا يحاربونه . وأى إقبال أكثر من السلطان والمال ، لا لمن يرثهما ، وإنما لمن كسبهما بامتياز فيما قد فطره الله عليه من ذكاء عقل وإرهاف حس . وحسد أصحاب السلطان الموروث لا تكون له إلا صورة واحدة فى نفوس المحسودين ، فقلما يمتاز من أثاروه بأكثر مما ورثوا ، بل كثيراً ما يرثون مع السلطان والمال ، بلادة فى الحس ، وغباء فى العقل . ولكن السلطان والمال لمن كسبوه عن طريق العقل خاصة ، له ناحية أخرى مؤلمة ، هو صدى هذا الحسد فى عقول ذكية ونفوس مرهفة ، فإذا كانت النفس مرهفة إرهاف الشعراء ، أثارت ألواناً من الحزن والبؤس والشقاء لا يحسها إلا هؤلاء الشعراء .

انظر إلى صورة شاعر الملك فى ابن زمرك ، وقف قليلا بآثار هذا الحسد الذى كان يحسه فيقول : « ألحسة فوض لى الملك ما فوض من أمور الدولة ؟» ، فإذا هى الآثار الحزينة

البائسة . انظر إليه على أبواب الستين أو نحو ذلك ، يترك أمور السياسة مختاراً مشمئزاً ، ويعكف على الدرس فى جامع مالقة ثم فى جامع الحمراء . انظر إليه ، وقد لاحظ الناس عليه شيئاً من التخبط والاختلاط ، فآثر بحدة ذهنه الانزواء والخلوص إلى العلم ، وهناك على الكرسى فى الجامع ، قام ابن زمرك شيخاً يدرس الفقه والتفسير خاصة ، بعيداً عن قصر الحمراء فى كل ما يفكر فيه ،إلا أن تقوم فى رأسه الذكريات . وهناك بهر الناس بآيات علمه ، ونفاذ بصيرته . ولكن الذين يحسدون ويكيدون ، لا يجلسون منه مجلس المناظر أو التلميذ ، وإنما فى العلم أحوال مطاطة ، يمكن أن تسع الحاسدين والمغيظين ، والتهافت عليه لا ينيل من خير المادة إلا الأقل . وقال ابن زمرك هكذا فايهدأ أهل غرناطة عن شاعر الملك .

هذا والغنى بالله قد امتدت به الحياة ليرى ما أصاب وزيره . وكم شكا إليه ولى الأمر مما يقول ابن زمرك بالمسجد ، فسكت عنه وحماه . فلما مات الغنى بالله ، ظهر الخفى وسقط به الليل على سرحان . فلقد كان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر من حجاب الدولة ، والاسترسال بالرد عليهم بالطبع والجبلة .

ظهر من الدنيا وجهها الخفى الذى كان يرقبه ابن زمرك ويحذره.
لقد مات الغنى بالله ، مات الأمل ، وماتت جذوة الحياة فى نفس الشاعر ، وأدى به النبأ إلى سكنى المعتقل بقصبة المرية .
وإذا صفاته تتغير وتنقلب إلى النقيض ، فحلاوة الحديث شراسة فى اللسان ، والحياء الذى كان يندى منه الجبين ، فيما وصفه به معاصروه ، ينقلب غروراً وتضريباً بين الناس ، وخدام السلطان خاصة .

ومكث فى هذا المعتقل أعواماً ، وتقلب على عرش غرناطة ملك ، ثم جاء آخر تنسم روح القوة فاستوزر ، ولما لم يعجبه الوزير بعد عام ، التجأ إلى هذا الذى قد ترك الدنيا وسخر من الناس وجفا طبعه وشرس لسانه .

ورجع ابن زمرك فدخل الحمراء ، ولكن بغير الوجه بل بغير القلب الذى فارقه به . دخل رجلا تغلى فى نفسه الإحن وتضطرم الأحقاد ، لقد عرف الناس على حقيقتهم ، وعرف شعورهم نحوه ، فكره الدنيا وكره الناس . ولكنه كره شاعر . كره قوى جبار ، يغذيه ذكاء ويلهبه قلب ، وإذا هو يقول مع بشار :

وما أنا إلا كالزمان إذا صحا   صحوت وإن ماق الزمان أموق

وأحكم الانتقام من الناس ، فلم تغل المراجل فى وجهه غليانها فى نفسه ، وإذا هو يلبس ثوب الرياء ، فيتقن الخدعة ، يدخل فى لباس الناصح الأمين ، فيدس للناس الهلاك والنقمة . ويرتب الأمور عليهم ليوقع بهم . وغلت الأحقاد فى نفسه لا نحو الأعداء فحسب ، وإنما نحو الناس أجمعين ، أخذ البرىء بذنب المجرم ، وكال العذاب للناس ما استطاع . جبار فى انتقامه ، كما كان معروفاً بحيائه ودماثة أخلاقه .

وصعدت أنفاس الأبرياء دعاء إلى السماء بالانتقام من الظالم الجبار ، وأوشكت محنة الشاعر أن تنتهى ، وإذا صفحة غرناطية ، تنتهى بما تنتهى بها صفحاتها عادة ، بالقتل وما أبشع القتل .

ودخل خادم الشاعر عليه ليلة ، وكان سمعه قد ثقل ، فإذا هو قائم يدعو الله وبين يديه المصحف الكريم . أكان يستغفر من ذنوبه ، أم كان يستلهم من الله قوة على الاستمرار فى الانتقام ؟ من يدرى ؟ لم يسائل الخادم نفسه ، وإنما امتدت يده لتقتل السيد ومن معه من بنيه وخدمه .

وطوى كتاب غرناطة صفحة آخر شعرائها ، صفحة كسائر الصفحات ، إلا أن فيها من الحياة أضعافها ، وفيها من الجمال خلاصته .

٤

مصباح

لقد زادنى وجداً وأغرى بى الجوى
ذبال بأذيال الظلام قد التفا
تشير وراء الليل منه بنانه
مخضبة والليل قد حجب الكفا
تلوح سناناً حين لا تنفح الصبا
وتبدى سواراً حين تثنى له العطفا
قطعت به ليلا يطارحنى الجوى
فآونة يبدو وآونة يخفى
إذا قلت لا يبدو أشال لسانه
وان قلت لا يخفى الضياء به كفا

إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى

وأهدى نسيم الروض من طيبة عرفا

لك الله يا مصباح أشبهت مهجتى

وقد شفها من لوعة الحب ما شفا

أى حب هذا الذى يتحدث عنه الشاعر ؟ فإن الأخبار عنه لم تذكر لهذا الحب صاحبة ، أكان للأهل أم للوطن أم للغنى بالله أم لمجهولة ؟ فلنقف به وقفة لنتبين ما هو ؟ ما هذا الحب الذى يحسه شاعر جلس إلى مصباح يرقب ذباله ، وإذا هو يتخيل أن الذبال يطارحه الجوى ، بل إنه ليشيل لسانه ويكف ضوءه ، وكأنما هو يعاند الشاعر أو يحاول أن يسليه عن همه فيغالطه ، والذبالة جميلة كالبنان المخضب قد محا الظلام الكف منها فلم يظهر إلا هذا البنان والخضاب ، أى الجزء المضيء بلون يشبه الخضاب فى حمرته ولمعانه ، والشاعر لا يقف به ليشبهه وإنما هو يناجيه ويقطع ليله كله جالساً إليه ناظراً فيه يتأمله ، فهو يرى فيه نفسه ، نفساً تضيء وسط الظلام قد شفها أنها تضيء وأنها تحب . ويطول الليل عليه فلا يلتفت إلى طوله ، وإنما الصبح إذا حان ذكره بأنه قضى وقتاً طويلا ،

فالصبح يفيق من غمرة الدجى ، ونسيم الصبح يحمل إليه عطراً منعشاً ، فإذا النفس ، التى انطوت الليل كله حزينة ، يزداد وجدها ويتردد بين قوة وضعف ، تتنسم الحياة والنشاط وتفيق ، لقد طال بها الليل وطالت جلستها إلى هذه الذبالة تناجيها .

إن مثل هذا الحب لا يكون حبا للغنى بالله ، ولا للأهل ولا للوطن . قد يكون لحبيبة مجهولة ، ولكن هذا بعيد . إنه حب لا يعرف الشاعر نفسه ما موضوعه . هو فطرة الإنسان ، فلما لم يجد لتلك الفطرة مصرفاً تعقد الحب وهو فى نفس الشاعر معقد عنيف .

قال الذين كتبوا عن ابن زمرك عند ذكر شيوخه إنه تلقى شيئاً من علم الكلام حتى نصب نفسه متكلماً فوق الكرسى المنصوب قبل أن يتصل بالغنى بالله . وقالوا إنه قرأ بعض الفنون العقلية بمدينة فاس على الشريف الرحلة الشهير بأبى عبد الله العلوى التلمسانى ، لم يخل فيها من استفادة مران وحنكة فى الصنعة . والأوضح من ذلك إشارتهم إلى أخذه بمذهب الصوفية : « فقد كان مصاحباً للصوفية آخذاً نفسه بارتياض ومجاهدة » ، بل إنه كان جانحاً إلى حب الصالحين ، فانضوى إلى شيخ الفرق

الصوفية الولى أبى جعفر بن الزيات وأخيه الفاضل الناسك الشيخ أبى المهدى .

ولا تفيدنا الأخبار شيئاً عن هذا التصوف الذى أخذه ابن زمرك عن هؤلاء الشيوخ ، والكلام عنهم أقرب إلى الكلام عن الأولياء منه إلى الكلام عن المتصوفة . وفى طبع الشاعر ما ساعد كثيراً على هذا النوع من التصوف الشاعرى الساذج ، فقد قالت الأخبار عنه إنه اتصف « بانقياد فى الطبع ، وإرسال الدمعة فى سبيل الخشوع ، والرقة ورشح الجبين عند تلقى الموعظة ، وصون الوجه بجلباب الحياء ، ومقابلة الناظر إليه بالاحتشام ، والمبادرة للاستدعاء على طهارة وبذل وسعة وكرم نفس ، لم يعهد أجمل منه مشاركة لإخوانه ، ولا أمتع منه بجاهه ، إلى مبالغة فى الحشة والمبرة والإيثار بما منح » .

وليس فى تاريخ الشاعر ما يدل على أنه قد تصوف ، بل إن حوادث حياته أميل إلى نفى التصوف كما نعرفه اليوم ، فمن اتصلت حياته بالملك وما حول الملك من فتن وثورات لا يمكن أن يكون قد أحس شيئاً من التصوف المعروف .

كل ما فى الأمر أن مصاحبة هؤلاء الأولياء ، الذين قد

يكونون هم متصوفة ، ولكنهم لم يخرجوا من ابن زمرك تلميذاً فى التصوف ، قد أثرت فى نفسه آثاراً جعلتها إلى قول الشعر المطبوع أميل ، بل رققت من معانى شعره وأضفت على عواطفه حرارة ورقة لم يكن من اليسير أن يصل إليهما فى مثل هذا العصر الصاخب الذى كان يعيش فيه لو لم يتصل بالتصوف من بعيد أو من قريب .

وهكذا نرى الحب فى شعر ابن زمرك غامضاً ، ولكنه بهذا الغموض يكسب رقة وعمقاً . فإذا عدنا إليه يجاهد الليل إلى جانب مصباح يشبهه بنفسه ويناجيه بحب لا يفصح عنه ، وجدنا أنه لو أفصح فى موضوع هذا الحب فأشار إلى حبيبة أو وطن أو ملك لأنزلت هذه الإشارة من قيمة الجو الذى يعانيه ، ولرأينا مادة توحى بهذا الحب الروحانى فتضعف من قيمته .

وابن زمرك كثير الوقوف بالمصباح ، يرى فيه نفسه حيناً ، ويراه العزاء حيناً آخر عما يضطرم فى الحياة حوله من حزن وجور وظلم ، لقد كان ينظر من حوله فلا يجد إلا نفوساً يلهيها الأمل عن واقعها الحزين ، أو يلهيها السرور الصاخب عن خطر قريب تعرف أمره وتشفق منه .

انظر إليه فى أحد موشحاته يصف الطبيعة الجميلة مصدر وحيه فى جل ما ألف من شعر ، ثم انظر إليه كيف يعلو إلى قمة النشوة بجمالها لينزل إلى درك الحزن عند ما يعرف أنها زائلة :

«فى كؤوس الثغر من ذاك اللعس — راحـــة الأرواح
وتغشى الروض مسكى النفس — عاطـــر الأرواح
وكسا الأدواح وشـــياً مذهبــا — يبهر الشمســـا
عسجـــد قد حل من فوق الربا — يبهج النفســـا
فاتخـــذ للهو فيـــه مركبـــا — تلحق الأنســـا
منـــبر الغصن عليـــه قد جلس — ســـاجع الأدواح
حلل السنـــدس خضراً قد لبس — عطفـــه المرتاح
قم تر هـــذا الأصـــيل شاحباً — حســـنه قد راق
ولأذيال الغصـــون ساحبـــا — فى حلى الأوراق
ونديم قال لى مخـــاطبـــا — قول ذى إشفاق
عادت الشمس بغرب تختلس — هات شمس الراح
إن أرانا الجو وجهـــاً قد عبس — أوقد المصـــباح
ووجوه الشرب تغنى عن شموس — كلمـــا تجلى
بلحاظ أسكرتنـــا عن كؤوس — خمرها أحـــلى

مظهرات من خفـــايا فى النفوس   ســـوراً تتـــلى
ما زمـــان الأنس إلا مختلس   فاغتنم ياصـــاح
وعيون الشهب تذكى عن حرس   تخصم النصاح »

ثم يستمر فى وصف الطبيعة ليخلص إلى المدح كعادته .

وليست هذه الصورة التى رسمها الشاعر بغريبة علينا بعد أن قدمنا الكلام عن عصره من هذه الناحية بما يؤذن بأن تكون هى مصدر الوحى عند الشعراء ، صورة الشمس الغاربة . ولكن انظر إلى الشاعر كيف يمهد لهذه الشمس الغاربة بالحياة ، بالحياة الهادئة الناعمة ، حياة الأصيل . خضرة تنحدر ماء من الجبل ، وإنسان قد فرغ من عمل النهار يريد أن يستريح فيلهو ، وطائر على فرع الغصن قد راقه النسيم وشم عبق الزهر فصدح : ثم يشحب الأصيل ويسحب أذيال الغصون فى حلى من أوراقها ، وشاعرنا واقف يرقب ، وفى النفس رقة وفى القلب نفحة من السماء ، قد علا وجهه مزيج رائق من الألم الحزين ، والسرور المريح ، فهو يرى الطبيعة من حوله فيحس الهدوء والراحة فيسر ، ولكنه يرى الشمس تسرع نحو الأفق وهو يعرف غاية هذا الجرى فيألم . كل شىء فى الحياة زائل حتى

بهجة الطبيعة ، حتى هذا الجمال الرائع الهادئ . وإذا صديق له ينظر إلى وجهه الساهم الهادئ الحزين فيشفق عليه وينبهه قائلا « عادة الشمس بغرب تختلس » تلك سنة الله فى خلقه ، هذه هى الحال أبداً ، فليست الشمس تغرب اليوم لأول مرة ، كلا ولا لآخرها . وماذا عليك إذا أثار الجو فيك العبوس أن تدع تلك الطبيعة التى تذكر بالفناء أبداً وتهتف بسير الحياة ولا تهدأ . الاستمرار المستمر الذى لابد أن تتوفر فيه بداءات ونهايات . وأين هذه فى الواقع ؟ إنها افتعالات ، دعها يا صاحبى وتعال فأغرق هذا التفكير الحزين اللذيذ فى كؤوس الراح . وهل عرف الإنسان أسرع من هذه الكؤوس فى استبدال الجو وجعل الدنيا تبدو على غير الوجه الذى لا يسر القلب . وإذا مجلس للشراب يوصف للترغيب . وهذه النفس تطمئن إلى هذا الذى ينسيها آلام الفناء ، شرب ووجوه وكؤوس ، وإذا النفس ينطلق اللسان منها ليبين ، وإذا هذه الإبانه آيات . فيض من العواطف وقف أمام الطبيعة حبيساً فأطلقته الخمر .

تعال يا صاح فرج الهم واغتنم الفرص ، فما تحيا الحياة إلا مرة واحدة ، وما الحياة إلا إلى الموت ، فكرت أم لم تفكر .

ثم انظر إلى الشاعر يحمل إليك هذه الموسيقى على نغم عذب جميل فيه مميزات المنظر الطبيعي ، سير هادئ عذب ثم وقفة . مقطع طويل يسير ، ثم مقطع قصير راقص ، كأنما هو جرس خفيف ينبهنا من غفوة اللذة إلى صحوة الحقيقة المرة .

ولعلك ترى هذا المصباح الذى طالعنا أول هذا الفصل مرة أخرى وهو يضىء ضوءاً جديداً فى ظاهره واحداً فى جوهره ، ضوء العزاء ، ضوءاً يسلى عن الواقع ويحمل على أجنحة الخيال إلى عوالم أخرى غير هذا الذى نعيش فيه . يتعزى به الشاعر عن الطبيعة كما يستعيض الإنسان به فعلا عن ضوء الشمس . ولكن هيهات ، وأين هو منها ، بل أنى له أن ينسينا الضوء الحقيقى ، أن ينسينا الواقع الحق ؟ إن هو إلا ضوء يناجيه الشاعر فيرى فيه صورة من نفسه تضىء وسط الظلام وقد شفها الألم ، فيرتاح إلى تلك الصورة ويتعزى بها أيضاً .

وهل كان الشعب الغرناطى يريد أن يسمع من الشعر إلا هذا النغم ؟ شعب هو المنارة تضىء فى ظلام إسبانيا ، شعب هو شمس المدنية والرقى ، ولكنها قد آذنت بمغيب ، فما أكثر

الألم الذى تثيره فى النفس ، وما أصدق الإشفاق وأروعه ، الذى تشفقه من سير الزمن .

* * *

زار الخيـــال بأيمن الزوراء	فجلا ســناه غياهب الظلماء
وسرى مع النسمات يسحب ذيله	فأتت تنم بعنـــبر وكبـــاء
هذا وما شىء ألذ من المنى	إلا زيارته مع الإغفــاء
بتنا خيالين التحفنا بالضنى	والسقم ما نخشى من الرقباء
يا سائلى عن سر من أحببته	السر عندى ميت الأحيــاء
تالله لا أشكو الصبابة والهوى	لسوى الأحبة أو أموت بدائى

ترى خيال من هذا الذى زار الشاعر فالتحفا بالضنى والسقم؟ ترى وما هذا السر الذى جعله الشاعر ميت الأحياء ؟ ومن هم هؤلاء الأحبة الذين يذكرهم جميعاً ولا يزيدنا بجمعهم إلا غموضاً ؟

انظر إليه يمضى فى هذه القصيدة متغزلا على نحو الشعراء الجاهليين بحبيبة مجهولة رحلت مع المسافرين لم تزوده إلا بنظرة يرجو منها أخرى فلا يظفر ، ولا أمل له فى أن يظفر :

يانظرة جادت بها أيدى النوى	حتى استهلت أدمعى بدماء
من لى بثانية تنادى بالأسى	قدك اتئد أسرفت فى الغلواء

حتى يتخلص من هذا بالحديث عن ذكرى ليل . فلنقف معه لنرى صورة ثالثة لشاعرنا وقد سهر الليل لا لينيره له مصباح يشبهه ، ولا ليؤنسه قوم يشربون يسلونه عن غروب الشمس ، وإنما ليطوي الشباب طياً :

ولرب ليل بالوصال قطعته أجلو دجاه بأوجه الندماء
أنسيت فيه القلب عادة حلمه وحثثت فيه أكؤس السراء
جاريت فى طلق التصابى جامحاً لا أنثنى لمقادة النصحاء
أطوى شبابى للمشيب مراحلاً برواحل الإصباح والإمساء
ياليت شعرى هل أرى أطوى إلى قبر الرسول صحائف البيداء

وليس كشاعرنا من يصور فتوة الشباب وقوة الحياة بشرط أن نستشف من هذه القوة والفتوة نذيراً بالزوال وإيذاناً بالانتهاء . انظر إليه وقد جار فى جموح طلق صباه لا يقف بالنصيحة ولا يتريث ولا يقتصد ، وإنما يندفع ، نحو ماذا ؟ نحو الشيب. وكأنما فى قوة الحياة نفسها أسباب القضاء عليها ، فالسير الحثيث لابد مسرع بالغاية . وهو يحس من نفسه فورة الحياة كما كانت تحسها الدولة التى أظلته ، بعد أن تركزت عناصر الحياة فيها تركزاً قوياً . ولكنها الحياة التى تتدفق نحو النهاية والتى تدل

قوتها ويرمز اندفاعها إلى أن الغاية ستدرك قبل أوانها .

كذلك أحس شباب الأمة الفتية ، وبخاصة من اتصلوا بأحداثها السياسية اتصالا وثيقاً ، فورة الحياة جامحة فى عروقهم. وصور شاعرنا الشباب المتدفق خير تصوير ، فى أكثر من موضع وبأفصح من تشبيه ، شبه الشباب بالبرق والمهر ، يقول عن استمتاعه بالشباب :

أختال كالمهر فى الجماح نشوان فى روضة الشباب

وشاعرنا لا يحس الفتوة فحسب ، وإنما هو يصور لنا كيف تستثير الطبيعة هذه الفتوة فيه فيهفو للرياح ويشتاق لمنظر البرق ، كما سنرى ذلك عند ما نقف بتصويره للطبيعة .

ويقف شاعرنا بالليل وقفات أخرى ، لا ليصف شجونه ، وإنما ليقول شعراً على النحو القديم المألوف ، فيعجب لا من حيث العاطفة الصادقة التى يصورها ، وإنما من حيث المعانى التى يريد أن يبهر بها عقول السامعين :

خيـــال على بعـــد المزار ألمّ بى

فأذكرنى من لم أكن عنه ســـاليا

عجبت له كيف اهتدى نحو مضجعى

ولم يبق منى السقم والشوق باقيا

رفعت له نار الصبابة فاهتدى

وخاض لها عرض الدجنة ساريا

وبنفس الطريقة ، التى يريد أن يعجبنا فيها المعنى ، نراه فى موضع آخر يصف حبيبته بأنها قد بخلت عليه حتى بالخيال السارى :

أمنعت ميسور الكلام أخا الهوى

وبخلت حتى بالخيال السارى

فبمثل هذه المعانى أراد الشاعر أن يبرهن لنا على أن الشعراء قد غادروا من متردم :

ودعوت أرباب البيان أريهم　　　كم غادر الشعراء من متردم

وفى الوقوف بالأطلال وذكر الوداع والفراق مجال للشاعر واسع ،ليغرب فى المعانى وليتأنق فى الألفاظ ، يتحدى أرباب البيان كما قال . ولكن مثل هذا الغزل لا يفتح لنا قلب الشاعر كما تفتحه لمحات أخرى قوية أرسل الشاعر فيها نفسه على سجيتها. وأكثر ما يتجلى ذلك إذا كانت مظاهر الطبيعة هى التى تحرك

أوتار نفسه . انظر إليه يقول :

وجرد من غمد الغمامة صارماً من البرق مصقول الصحيفة صافيا
تبسم فاستبكى جفونى غمرة ملأت بدر الدمع منها ردائيا
وأذكرنى ثغراً ظمئت لورده ولا والهوى العذرى ما كنت ناسيا

فما هذا الهوى العذرى الذى كان يتغنى به الشاعر ؟ حب من أو حب ماذا ؟ أكان مجرد حنين نحو مظاهر الطبيعة وحياة الإنسان ؟ أم إنه أمل غامض فى نفس الشاعر لم يفصح عنه شعره ولم تلوح لنا به حياته ؟ أكان عطشاً إلى شىء لم يتبينه ، فرمز إلى هذه العاطفة بالحب ، واتخذ هذا الغزل الرقيق العذب الذى يمزجه بظواهر الطبيعة ، وهذا الغزل المصطنع يدل به على أرباب البيان ، رمزاً إلى هذا الذى لم يتحدد فى نفسه ولم تستطع حياته أن تحققه رغم ما قد وصل إليه من ثراء وسلطان . ثم كان الزوال الذى لا يتيح للحب أملا فى النعيم والسعادة يرفرف على هذا الحب فيظلمه لا يدع منه إلا الأطراف مضيئة كنور الصبح يضىء أطراف الليل « غلس تخالط سدفه بنهار » .

وسواء أكان هذا الحب أملا أم حبا واقعاً فإن صورته الشعرية أبعد ما تكون عن التصوف والمتصوفة . وإذن فأثر التصوف فى

شعره هو إرهاف للحس وترقيق للشعور بحيث تستجيب النفس للجمال وتهتز أوتار القلب للطبيعة . وقد هفت نفس شاعرنا إلى الجمال واهتزت أوتار قلبه للطبيعة .

ولكن إن بعد شعر ابن زمرك عن تصوير عواطف المتصوفة فهو لم يبعد عن تصوير عواطف أهل غرناطة أيام الغنى بالله . بل لقد كان شعره الصورة الحية لتلك الفترة من الحياة فى هذه البقعة من الأرض .

٥

أمــل

لم يكن الغنى بالله بالنسبة إلى الغرناطيين ملكاً عادلا حازماً فحسب ، ولم يكن ملكاً قد أتاح لهم الأمن فهم ينعمون فى ظله بالطمأنينة والانصراف إلى شؤونهم ليس غير ، وإنما كان الغنى بالله بالنسبة إليهم أملا . أحبوه وتعلقوا به ورأوه رمزاً لسعد سيأتيهم وعنواناً لمجد سيستعيدونه على يديه . ولم يكن هذا الأمل قد مهدت له الأسباب وامتدت له يد الزمان مسالمة معاهدة ، وإنما هو أمل قد حف بالخطر من كل صوب ، حف بالخطر من الدول المعاصرة كلها ، بل حف بالخطر من داخل المملكة نفسها .

وكانت صلة ابن زمرك تتيح له أن يرى من هذا الأمل أجمل الوجوه وأكثرها إشراقاً . فقد كان فى خدمته وزيراً ، بل لقد كان

ينفذ معه الخطوات العملية فى سبيل إحقاق هذا الأمل على رقعة الواقع . لذلك اهتزت نفسه به كل هزة مهما تكن صغيرة أو تافهة .

انظر إليه يمرض الغنى بالله فيجزع ، ثم يشفى فيفرح بل يتهلل فرحاً . وإذا هو يجعل الطبيعة كلها من حوله فرحة . ولو قد استطاع أن يرقص الشعب الغرناطى كله على جميل نغم البشرى لفعل . ولكن الشعب من نفسه كان يرقص . يقول :

وجه هــذا اليوم باسم	وشــذا الأزهار ناسم
هاتها صــاح كؤوساً	جالبــات للســرور
وارتقب منهــا شموســاً	طالعــات فى حبــور
ما ترى الروض عروساً	فى حــلى نور ونور
وأتت رســل المواسم	تجتلى هــذى النواسم
قد أهلت بالبشــائر	أضحكت ثغــر الأزاهر
سنحت فى يمن طائر	ونظمن كالجواهــر
فانشروها فى العشــائر	إن هــذا الصنع باهر
وأشيعوا فى العــوالم	الغنى بالله ســالم

ولم لا ترقص الطبيعة وتحيا من نشوة الفرح ، ولم لا تشرب

الخمر فى نشوة السرور ، ألم تنجل محنة وتنقشع سحابة هم .

فهنيئا بالشفا يا أمير المسلمين
ولنا حق الهنا وجميع العالمين
إن جهرنا بالدعا ينطق الدهر أمين
دمت محروس المكارم بظبا البيض الصوارم

وكان الغنى بالله قد أبلى فى الجهاد بلاء حببه إلى النفوس وأوقد فى القلوب ذبالة هذا الأمل الذى ترقصه الرياح :

فكسر تمثال الصليب وأخرست
نواقيس كانت للضلال بمرصد

بل هو قد روع أهل الكفر :

فكم معقل للكفر صبحت أهله بجيش أعاد الصبح أظلم داجيا
رقيت إليه والسيوف مشيحة وقد بلغت فيه النفوس التراقيا
ففتحت مرقاه الممنع عنوة وبات به التوحيد يعلو مناديا
وناقوسه بالقسر أمسى معطلا ومنبره بالذكر أصبح حاليا
عجائب لم تخطر ببال وإنما ظفرنا بها عن همة هى ماهيا

فضرب شاعره على الوتر الحساس ، على وتر الدين فى تمجيده لحروب مولاه : حروب من أجل الدين الحبيب المهدد بالخطر ،

ونصر على الدين النصرانى تحلو صورته فى العين ويشيع فى النفس لوناً من الشعور بالقوة فى ساعات اليأس والضعف يخفف عنها يأسها ويقوى من ضعفها .

واتخذ الشاعر إلى سبيل مدحه فى الجهاد حقيقة جلاّها للأذهان وقواها بالتكرار . فهذا المجاهد فى سبيل الإسلام المعلى لمنارته فى غرناطة ، هو حفيد سعد بن عبادة الخزرجى المعروف ، ولسعد فى الإسلام بلاء ولقومه الأنصار فيه بلاء لا يقل شأناً . فانظر إلى الشاعر كيف يشير إلى هذه الحقيقة إشارات مختلفة ، ويولد منها المعانى ، لا من حقيقتها فحسب ، ولكن من ألفاظها أيضاً ، فعنده من النصر والسعد مشتقات كلها لها دلالتها ، فيقول :

فيا وارث الأنصار لا عن كلالة
تراث جلال يستخف الرواسيا

أو يقول :

جددت للأنصار حلى جهادها
فالدين والدنيـــا به تتجمل

أو يعترف بعجزه عن الإتيان فى مدحه بما يستحق قوم الملك فيقول :

ماذا عسى أثنى وقد أثنت على
عليائهم آى الكتاب المحكم

ومنذا الذى لا يذكر مواقف الأنصار من النبى الكريم يوم جفاه قومه فآووا ونصروا وانتصروا . فربط جهاد ابن نصر هذا بجهاد الأنصار ، ربط لا يستمد روحه من تشابه اللفظ أو صلة القرابة ، وإنما يستمد روحه من هذه الذكرى الحبيبة فى نفوس الناس لهؤلاء الأنصار الذين قدموا للإسلام ما قدموه ، لا يسألون على ما قدموه إلا أجر السماء .

وبذلك اكتسبت حروب الغنى بالله فى مدح شاعره رونقاً باهراً . انظر إليه كيف يصور أن بشائر النصر كانت تسبقه إلى الميدان ووفود الانتصار تتقدمه فى كل معركة . أليس فى انتمائه إلى الأنصار الذين لجأ إليهم النبى بدينه كما يلجأ الغرناطيون الآن إلى الغنى بالله فآووا ونصروا ما يشجع الأمل بأنه سيأوى وينصر ؟ كل ما فى الأمر أن النبى الكريم فرد لجأ إلى جماعة ، وهم جماعة يلجؤن إلى فرد . أو ليس فى اسم أسرته بنى نصر ما يوجب التفاؤل ؟ بل أوليس فى تاريخه القريب ما يمنى بالنفس بالمنى :

وبدت نجوم السعد قبل طلوعه تجلو المطامع قبله وتؤثل
وروت أحاديث الفتوح غرائباً والنصر يملي والبشائر تنقل
ألقت إليك به السعود زمامها فالسعد يمضى ما تقول وتفعل

أو يقول :

فمن السعود أمام جيشك موكب ومن الملائك دون جندك جحفل

فإذا جاء إلى مدح الغنى بالله بالكرم الذى أصابه منه وابل نزل عليه ينسجم :

أتعطش أولادى وأنت غمامة تعم جميع الخلق بالنفع والسقيا

لم يجد من معانى الكرم وقد استنفذها الشعراء المادحون منذ عصر النعمان إلا ما يوجب التكرار . ويأبى الشاعر إلا أن يكسب حتى هذا المدح القديم رونقاً من الحياة ، فتراه يضمه أبداً إلى صفات الممدوح الأخرى ، ويمزج الكل بمظاهر الطبيعة ، فتخرج لنا صورة من المدح بالكرم ليست جديدة المعانى ولا جديدة التشبيهات ، ولكن ماء الحياة يسرى فيها من الطبيعة التى تصور من خللها :

من قاس كفك بالغمام فإنه جهل القياس ومثلها لا تجهل
تسخو الغمام ووجهها متجهم والوجه منه مع الندى يتهلل

أو يقول :

ولقد تراءى بأسه وسماحه فأتى الجلال من الجمال بتوأم
مثل الغمام وقد تضاحك برقه فأفاد بين تجهم وتبسم

فإذا أتى إلى مقام مدح الغنى بالله بالجمال أفاض فى ذلك إفاضة . فلقد كان الغنى بالله لا يوحى وجهه الصبوح بالجمال فحسب ، وإنما من وراء هذا كله أمل يضىء هذا الوجه فيجعله يتألق :

وجه كما حسر الصباح نقابه لضيائه تعشو البدور الكمل

أو يقول وقد أكسب الوجه المضىء حياة من كمال واكتمال :

من قاس بالشمس المنيرة وجهه ألفيته فى حكمه لا يعـــدل
من أين للشمس المنيرة منطق ببيانه در الكلام يفصـــل
من أين للشمس المنيرة راحة تسخو إذا بخل الزمان الممحل
من قاس بالبدر المنير كماله فالبدر ينقص والخليفة يكمل

وهكذا يردد الجملة والألفاظ ويولد المعنى من العادى المألوف ، يكسوه رونقاً من كمال الخليفة ومهابته لا يتوفران فى ظواهر الطبيعة التى ألف الناس أن يمتدحوا الجمال بها . فللغنى بالله مهابة يصفها بقوله :

أخذت قلوب الكافرين مهابة فعقولهم من خوفها لا تعقل

بل إنه قد يعكس الآية فيشبه جمال الطبيعة فى موطن الكلام عليها بالخليفة ، فيقول فى وصف جنة :

وروض المحل منها كل منبجس إذا اشتكت بغليل الجدب يرويها
يحكى الخليفة كفا كلما وكفت بالجود فوق موات الأرض يحييها

وهكذا امتزجت صفات الخليفة بصفات الطبيعة امتزاج تشابه وقربى واذا هو يخلص من الكلام فى الطبيعة إلى المدح ، وكأنما هو يتحدث عن موضوع واحد . انظر إليه يقول :

أرقت لبرق مثـــل جفنى ساهرا
ينظم من قطر الغمام جواهرا
فيبسم ثغر الروض عنه أزاهرا

وصبح حكى وجه الخليفة باهرا تجسم من نور الهدى وتجسدا

شفانى معتـــل النسيم إذا انبرى
وأسند عن دمعى الحديث الذى جرى
وقد فتق الأرجاء مسكاً وعنـــبرا
كأن الغنى بالله فى الروض قد سرى

فهبت به الأرواح عاطرة الردا

عذيرى من قلب إلى الحسن قد صفا
تهيجه الذكرى ويصبو إلى الصبا
ويجرى جياد اللهو فى ملعب الصبا
ولولا ابن نصر ما أفاق وأعتبا رأى وجهه صبح الهداية فاهتدى.

إليــك أمير المؤمنــين شكاية
جنى الحسن فيهــا للقلوب جناية
وأعظم فيهــا بالعيــون نكاية
وأطلع فى ليل من الشعر آية محيا جميلا بالصباح قد ارتدى

بهديك تهــدى النيرات وتهتــدى
وأنوارها جدوى يمينك تجتــدى
وعدلك للأمــلاك أوضح مرشــد
بآثاره فى مشكل الأمر تقتدى فما بال سلطان الجمال قد اعتدى.

تحكم منــا فى نفوس ضعيفة
وسل ســيوفاً من جفون نحيفة
ألم يدر أنا فى ظــلال خليفة
ودولة أمن لا تراع منيفة بها قد رسا دين الهوى وتمهدا

ثم يمضى فى هذا الموشح الطويل مازجاً هذا المزج الفريد

بين ممدوحه والطبيعة حتى يخلص شيئاً فشيئاً إلى الكلام عن ممدوحه :

فسبحان من أجرى الرياح بنصره
وعطر أنفـــاس الرياض لشكره
فبرد الصبا يطوى على طيب نشره

ومهما تجلى وجهه وسط قصره   ترى هالة بدر السماء بها بدا

ومتى ظهر وجه الخليفة لنا من خلل الأبيات فقد تجسد فى مخيلتنا ، وأصبحنا معدين أتم إعداد لأن نسمع عن هذا الوجه وحده ما يريد الشاعر أن يثبت لنا من مزاياه وصفاته . وكما كان الشعراء عادة يقدمون إلى المدح بالغزل أو بالوقوف بالأطلال فكذلك مهد ابن زمرك للغزل بوصف الطبيعة ، كل ما فى الأمر أن الشعراء كانوا يجدون الصعوبة فى التخلص من الغزل إلى المدح ، وكثيراً ما كانوا يتكلفون فى ذلك تكلفاً . أما هنا فإن هذه الصعوبة يكاد يمحوها الشاعر محواً . فالطبيعة والممدوح متحدان منذ أول الكلام عن الطبيعة . الخليفة عنصر من جمال الطبيعة حوله ، هو سر هذا الجمال وحياته . فإذا فرغ من الكلام عن الرياح والرياض والسماء والصباح والمطر استطاع فى سر أن

يركز سائر كلامه عن روح هذه الظواهر كلها ، عن الخليفة الذى سرى روحه فى كل هذه المظاهر فجعلها تتحرك وتحيا . .

ولقد وقف الشاعر فى المدح عند نفس العقدة التى وقف عندها الشعراء من صعوبة التخلص من الغزل إلى المدح ، وتكلف تكلفهم فى هذا الخلوص . انظر إليه فى موشحة غزلية أراد أن يختمها كما يفعل عادة بمدح من قد شغل حياته فملأها كلها ، يقول متغزلاً :

كم ليلة بتها وبتنا ضدين فى السهد والرقاد
أسامر النجم فيك حتى علمت أجفانها السهاد
أرقب بدر الدجا وأنتَ قد لحت فى هالة الفؤاد
نفسى وليت ما تولت دعها على الشوق تصبر
لو سمتها الهجر ما تولت ولم تكن عنك تنفر
علمها الصبر فى الحروب سلطاننا عاقد البنود
معفر الصيد للجنوب أعز من قد حف بالجنود
نصرت بالرعب فى القلوب والبيض لم تبرح البنود
عناية الله فيه حلت بسعده الدين ينصر
والخلق فى عصره تملت غنائماً ليس تحصر

ثم يمضى فى مدحه العادى معدداً للخليفة صفاته المعروفة من الشجاعة والكرم وطلعة توحى بالأمل والتفاؤل .

ولكن تخلص الشاعر من وصف الطبيعة إلى مدح الممدوح ما كان يحتاج إلى هذا التكلف الذى نراه فى تخلصه من الغزل إلى المدح . فلقد كان الخليفة فى صورته الطبيعية عنصراً فيها منذ أول الأمر ، وما كان ليستطيع ذلك فى مواطن الغزل .

ولكن الإطار الذى يرى فيه الخليفة أجمل ما يرى هو قصره الحمراء . ونصب الشاعر نفسه واصفاً لهذا القصر مزيناً قبابه بأبيات خالدة خلود أحجارها على الأقل . ولكن هذا الوصف نفسه اتجه اتجاهين : وصف ما قد أبرز الخليفة ببناء هذا القصر من صفات أحيا بها الأمل ورمز بها إلى مجد مؤثل ؛ ووصف صورة هذا القصر وقد انعكس على الطبيعة من حوله فكان هو الآخر عنصراً من عناصر جمالها ، على نحو ما كان يفعل فى مدح الغنى بالله نفسه . كل ما فى الأمر أن الممدوح كان حياة الطبيعة من حوله ، والقصر هنا جزء منها له نصيبه من الحياة ، ولكنه كسائرها لا يمتاز عنها . هو فى شعر الشاعر جزء من

الطبيعة قد أقامه الغنى بالله فأضاف إلى ظواهرها ظاهرة توحى بالجمال .

انظر إليه كيف يصف حصن القصر وبروجه فيقول :

ويا رب حصن فى ذراها قد اعتلى
أنارت بروج الأفق فى مظهر العلا
بروج قصـــور شدتهـــا متطولا
فأنشأت برجاً صاعداً متنزلا يكون رسولاً بينهـــا مترددا

وهل هى إلا هالة حول بدرها
يصوغ لهـــا حليـــاً يليق بنحرها
تطور أنواعاً تشيـــد بفخرها
فحجل برجليها وشاح بخصرها وتاج بأعلى رأسها قد تنضدا

أراد استراق السمع وهو ممنع
فقـــام بأذيال الدجى يتلفع
وأصغى لأخبـــار السما يتسمع
فأتبعها منها ذوابل شرّع لتقذفه بالرعب مثنى وموحدا

وما هو إلا قائم مدّ كفـــه
ليسأل من رب السموات لطفه

لمولى تولاه وأحكم وصفــه
وكلف أرباب البلاغة وصفه   وأكرم منه القانت المتهجدا

وقام ابن زمرك بأوفر نصيب مما كلف به أرباب البلاغة ، ونظم في وصف القصر ومدح بانيه ، والدعاء للقصر وبانيه بالسلامة أفانين ، منها ما قد خفيت فيه الصنعة فسار خطوات نحو الكمال الفني ، ومنها ما ظهرت صنعته فأفسدت فنه ، كأن يؤلف أبياتاً لتجمع حروفها فيؤرخ عاماً بعينه ، أو ما هو أ كثر من ذلك تطلباً للصنعة ، كأن يضمن الآية (نصر من الله وفتح قريب) أبياته في مناسبات مختلفة .

ولا يزال القصر قصر السلام   يختال في برد الشباب القشيب
يتلو عليك الدهر كل عام   نصر من الله وفتح قريب

فإذا كانت صورة القصر في مثل هذا المدح جامدة فإنها في إطار الطبيعة حية أي حياة . انظر إلى الجوزاء تصافحه وبدر السماء يناجيه ونجوم الصبح تراه فلا تحمد مكانها من السماء ، وإنها لتود أن تشرق بالقصر لتشرف ، بل إنها لتفضل أن تكون به حبيسة على أن تنطلق حرة في السماء .

وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به   ولم تك في أفق السماء جواريا

بل هذه هى النجوم تنظر إلى الشاعر واقفاً بالقصر فتحسده على هذا القرب منه :

وشاهد ذا أنى ببابك واقف وقد حسدت زهر النجوم مكانيا

وكأنما نجوم السماء وهى أكثرها لألاءً ورفعة قد تمنت أن تكون فى هذا القصر أو إلى جواره ، فكيف بسائر الكائنات فى الطبيعة ، وكيف بسائر أهل الأرض من البشر ؟

وكان للقصر إلى جانب فخامته صورة معنوية تهيج فى نفوس المعاصرين للغنى بالله ، وهى اليوم الصورة الأولى التى تنبعث فى النفس لذكراه . تلك هى صورة الأحداث الدامية التى جعلت الحمراء اسماً لما قد جرى فى جنباته من دماء . فكم من خليفة قتل به . وكم من وزير نكل به الملك والشعب قد سالت دماؤه فيه . وإلى جانب هذه الصورة الصارمة كانت صورة أخرى ، صورة الحياة اللاهية العابثة التى كانت تزدهر فى خلافة بعض خلفائه . وكلتا الصورتين لم يرسم منهما الشاعر شيئاً . أما الأولى فحرجاً من أن يجرح الملك الذى كان رمز الآمال بما يؤذى هذا الأمل من صور . وأما الثانية فتزمتاً فى عصر خليفة يدافع عن الإسلام ويعلى منارة الدين . لذلك خرجت لنا صورة

الحمراء فى شعر الشاعر جميلة ، ولكنها صامتة ، لم يستطع أن ينطقها بالأمل الذى أنطق به صاحبها ، ولم يستطع أن ينزع من واقعها ما يبث فيها هذه الحياة ، للأسباب التى ذكرناها .

ولابن زمرك فى الخليفة وقصره أبيات كثيرة أوحت بها مناسبات تقليدية كالأعياد ، كان ينتهزها الشاعر ليظهر براعة فنه الشعرى ، ويشيد بمجد خليفة قد أحبه حبا صادقاً تعددت أسبابه وبواعثه ، ولكنها أجمعت كلها على أن الخليفة هو الأمل وقصره هو الرمز الخالد لهذا الأمل المرجو .

ونظر الشاعر إلى الخليفة على أنه صديق حبيب . فإلى جانب شخصيته العامة كانت له شخصية خاصة محببة إلى النفس توحى بالود الخالص فتؤجج المدح بالحياة وتلهبه بالرجاء .

وما الطل فى ثغر من الزهر باسم   بأزكى وأصفى من ثنائى ومن ودى

ونظر الشاعر إلى عصر خليفته على أنه عصر ممتاز ، عصر قد زانه الخليفة بالأعمال ، وزانته الطبيعة والحياة بطابع خاص قد جعله فريداً بين العصور .

لقد كان الخليفة وقصره الظاهرتين اللتين ترمزان إلى الحياة السياسية والإنسانية فى مملكة غرناطة . ولكن من وراء الحياة

السياسية والأحداث العامة كانت الحياة الخاصة التى عاشها الشعب الغرناطى وسادته ، حياة القلب والحس الخالصة من وقائع الأحداث وإن تأثرت بها . كان من وراء الإنسان الطبيعة التى تتفاعل فى نفس الإنسان، ولكنها منفصلة عنها لها كيانها الذى يوحى ويحرك ، فلنقف بها عند شاعرنا ، فقد كانت حياة شعره وروحه

٦

الأرض الطيبة

نشأ ابن زمرك بالبيازين من أعمال غرناطة ، منطقة شهرت بصفاء طبيعتها وجمالها . ثم اضطر إلى التغرب فى شمال أفريقيا بفاس للدراسة والتعليم . فقد أوى كثير من الآثار العلمية إلى مدرسة فاس ، والتف حولها عدد من مشاهير العلماء الذين وجدوا من جو الأندلس المضطرب مادفعهم إلى الرحلة عنها ليسكنوا إلى أرض إسلامية ، تتقلب عليها الظروف ، ولكن الدين فيها لا يتغير ، والإسلام عنها لايتحول . ولما كانت علومهم ترتكز أكثر ما ترتكز على هذا الدين ، لم يكن من السهل عليهم أن يستمروا فى أرض يهدد فيها الإسلام بالذات ليفرغوا إلى دراستهم آمنين . لقد كان الإسبان فى إجلائهم العرب أول الأمر يأذنون للمسلمين المغلوبين فى أن يقيموا شعائر دينهم ويتكلموا لغتهم ، ولكنهم

شيئاً فشيئاً أخذوا فى محو كل أثر للعرب والإسلام . بل جدوا فى ذلك حتى وصلوا بعد هدم سلطان العرب نهائيا فى الأندلس إلى أن يعاقبوا على الكلام باللغة العربية عقوبات صارمة . ولقد بدأ العلماء منذ أول الإجلاء يحسون تقلقل الأرض من تحت أقدامهم ، فأخذوا يهرعون إلى الدولة الإسلامية فيما قد بقى لها من أرض . ولما ضاقت الرقعة ، ولم تعد تسع أكثر مما وسعته ، أخذ هؤلاء ينزحون زرافات إلى شمال إفريقيا . فلما اتصلت دولة الأندلس بدولة شمال إفريقيا اتصالا وحدها أصبح الوجود فى شمال إفريقيا أو الوجود فى الأندلس يعد وجوداً فى دولة واحدة . ثم أخذت دولة الأندلس تضيق مرة أخرى ، وكثر هروع الآثار العلمية نفسها إلى شمال إفريقيا . فوجد العلماء فى مراكش والمغرب عامة ملاذاً . وصار عبورهم للعدوة أمراً يسيراً كلما اضطرتهم الظروف إلى ذلك . ولقد كان هذا العبور أمراً عاديا ، فالعرب قد شهروا فى تاريخهم عامة بحب الرحلات والأسفار فى مختلف أنحاء الدولة ، ولكنه الآن أصبح أمراً مكرراً ، يكاد يكون مستمراً .

وأصبحت عادة متبعة أن يسير الشاب فى دولة غرناطة إلى

العدوة ، إلى مدارس شمال إفريقيا ، إلى مدرسة فاس ليتلقى العلوم بها . وكانت كلها تدور حول النحو واللغة والفقه والتفسير والكلام وشيء من الفنون العقلية . فرحل فيمن رحل ابن زمرك ، شاب يتوقد ذكاء إلى مدرسة فاس طلباً للعلم . أكان ابن مكارى أم ابن شريف ؟ من يدرى ؟ ولكن مجرد هذه الرحلة تجعلنا نرجح الثانية .

مكث فى فاس أعواما لا نعرف مداها ، حصل فيها على علم لا نعرف مقداره ، وإنما نعرف شيوخه فنقدر أنه كان أميز ما يمكن أن يحصل عليه فى عصره . ولكنا نقف باتصاله بالعلوم العقلية وبمذاهب الصوفية وقفة خاصة ، لنلمح آثاره فى فنه ، ونقف بالرحلة نفسها على أنها أكبر أثر فى وحيه الشعرى .

لقد فارق الشاب المتوقد ذكاء وطنه . فارق وطناً جميلا يبعث الحب فى نفوس الغرباء ، فكيف به فى نفس أبنائه . ابن أرهف حسه إرهاف الشعراء ، فحن إلى هذا الوطن الجميل الذى تغرب عنه ، ابن خلق ألوفاً كما يقول هو عن نفسه :

خلقت من عادتى ألوفاً   أحن للإلف والسكن

وأين يكون الإلف والسكن إلا فى وطنه الحبيب ، هذا الوطن

الذى شع عصره كله بحب الناس له والتغنى بجماله الطبيعى . وزاد فى حب هذا الوطن كما أسلفنا تعرض للخطر جعل التعلق به أشد والإشفاق عليه أقوى . انظر إليه يصف غرناطة فكأنما هو يصف جنة الخلد :

يا من يحن إلى نجد وناديها غرناطة قد ثوت نجد بواديها
قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها عقيلة والكثيب الفرد جاليها
تقلدت بوشاح النهر وابتسمت أزهارها وهى حلى فى تراقيها

* * *

كم حولها من بدور تجتنى زهراً فتحسب الزهر قد قبلن أيديها
حصباؤها لؤلؤ قد شف جوهرها والنهر قد سال ذوباً من لآليها

* * *

يزيد حسناً على نهر المجرة قد أغناه در حباب عن دراريها

ثم انظر إليه كيف يخلط بين حياة أبنائها وطبيعتها فيقول :

وساجع العود فى كف النديم إذا ما استوقف الطير يدنيها ويقربها
يبدى أفانين سحر فى ترنمه يصبى العقول بها حسناً ويسبيها

إلى أن يقول :

فباكر الروض والأغصان مائلة
يثنى النفوس لها شوقاً تثنيها
لم يرقص الدوح بالأكمام من طرب
حتى شدا من قيان الطير شاديها

* * *

غرناطة آنس الرحمن ساكنها باحت بسر معانيها أغانيها
أعدى نسيمهم لطفاً نفوسهم فرقة الطبع طبع منه يعديها

حنين إلى أرض الطبيعة الأولى فى الشعر العربى ، حنين إلى نجد مولد شعر الطبيعة عند العرب ، وجمال طبيعتهم الأول الذى صوروه . وهذه غرناطة بعد قرون وقرون تقوم لتذكر الشاعر بهذا الوطن الشعرى الأول ، ولكن غرناطة أفضل . وهل فى هذا شك ؟ غرناطة التى امتازت طبيعتها بجمال الجبال والأنهار وخيرات الطبيعة التى رققت من طباع ساكنيها . فهذا جبل غرناطة وذاك نهرها ، هذه أرضها وتلك سماؤها ، ثم هؤلاء أهلها يعيشون فيها ، قوم قد أحبوا الموسيقى والنغم . ومنذا الذى ينكر على ساكنى إسبانيا ، نصارى أو مسلمين ، حبهم للنغم والإيقاع ، إنه فى دمائهم

يجري . ثم منذا الذى ينكر عليهم رقة فى الطبع أو رهافة فى الحس . لقد تجلى ذلك كله للشاعر النازح عن وطنه ، فانتزع من قلبه حسرة الفراق وألم الحنين .

وهل صور أحد حب بلده ممتزجاً بحب طبيعتها كما صوره ابن زمرك ، موسيقى ورقة ألفاظ عند ما يقول :

أبلغ لغرناطة السلام	وصف لها عهدى السليم
فلو رعى طيفها ذمام	ما بت فى ليلة السليم
كم بت فيها على اقتراح	أعل من خمرة الرضاب
أدير فيها كؤوس راح	قد زانها الثغر بالحباب
أختال كالمهر فى الجماح	نشوان فى روضة الشباب
أضاحك الزهر فى الكمام	مباهياً روضه الوسيم
وأفضح الغصن فى القوام	إن هبّ من جوها النسيم
بينا أنا والشباب ضاف	وظله فوقنا مديد
ومورد الأنس فيه صاف	وبرده رائق جديد
إذ لاح فى الأفق غير خاف	صبح به نبه الوليد

أيقظ من كان ذا منام   لما انجلى ليله البهيم
وأرسل الدمع كالغمام   فى كل واد به أهيم

* * *

أعندكم أننى بفاس   أكابد الشوق والحنين
أذكر أهلى بها وناسى   واليوم فى الطول كالسنين
الله حسبى فكم أقاسى   من وحشه الصب والبنين
مطارحاً ساجع الحمـــام   شوقاً إلى الإلف والحميم
والدمع قد لج فى انسجام   وقد وهى عقده النظيم
يا ساكنى جنة العريف   أسكنتم جنـــة الخلود
كم ثم من منظر شريف   قد حف باليمن والسعود
ورب طود به منيف   أدواحه الخضر كالبنود
والنهر قد سل كالحسام   لراحة الشرب مستـــديم
والزهر قد راق بابتسام   مقبـــلا راحة النـــديم

وهكذا يستمر فى هذا الموشح الطويل مازجاً بين حبه للطبيعة وحبه للأهل والأحبة ، ذاكراً عهدهم ، عهد الشباب الذى لا يلوى على شىء ولا يرى إلا نفسه ، شباب « يختال كالمهر فى الجماح نشوان من روضة الشباب » ، شباب قد مد له فى اللذة والنعيم

حتى شرب الكأس إلى ثمالتها ، فأحس النهاية وأحس أنه افتقد شيئاً ، وإذا هذا الذى قد فقده وطن وشباب ، وطن قد قضى فيه أسعد أيام العمر وأفعمها بالحياة . وإذا هو طالب علم فى فاس ينظر إلى غرناطة ، ينظر إلى جنة العريف التى خرج إليها الغنى بالله يتنزه فعاد فوجد أخاه قد دخل القصر مؤذناً بملكه وخلع أخيه . جنة عرف التاريخ لها جمال المنظر وسجله بالوصف والحوادث . والشاب يرى جنة العريف عبر العدوة فيراها جنة الخلد ، لا بجمال الطبيعة فيها ، وإنما بجمال الحياة فيها أيضاً .

أرحل الشاعر إلى فاس شابا لم يطو الشباب إلا فى كلام شعراء ، أم إنه رحل وقد طوى الشباب فعلاً ؟ أما التاريخ فيقول إنه اتصل بالغنى بالله لما خلع واستجار بأبى سالم . وهو نفسه يقول إنه خدم الغنى بالله سبعاً وثلاثين سنة ، والشاعر فيما يروى التاريخ قد ولد عام ثلاث وثلاثين وسبعمائة وتوفى عام ثلاث وتسعين وسبعمائة ، فى غير تأكيد من عام الوفاة ، فيكون الشاعر قد عاش نحواً من ستين عاماً ، قضى سبعاً وثلاثين منها فى خدمة الغنى بالله وحده ، وقد عاش بعد الغنى بالله أعواماً قليلة ، فلا يمكن أن يكون قد بدأ اتصاله بالغنى بالله إلا وهو قد

أكمل العشرين أو زاد عليها بضعة أعوام . إذاً فرحيلة إلى فاس كان رحيل شاب فى طلب العلم كما قد فهمنا ذلك من أخباره ، وما تصويره لطى الشباب إلا تصوير لطى أبهج أعوام العمر اللاهية التى قضاها فتى ويافعاً قبل أن يستقبل جد الحياة وجد الدرس وجد الاتصال بالملوك .

وليس يعنينا هنا تاريخ القصيدة بالنسبة لحياة الشاعر بقدر ما يعنينا أن نستشف من هذه القصيدة الحياة الدافقة التى كانت تملأ صورة الوطن وتلهب حبه له . الوطن الجميل بأهله وطبيعته ، الحبيب لما قد يتعرض له من أخطار .

انظر إليه فى قصيدة أخرى كيف يصف حبه ، وعنف هذا الحب ورقته ، ليقدم بهذا إلى أن غرناطة هى السؤل والوطر :

بالله يا قامة القضيب	ومخجل الشمس والقمر
من ملك الحسن فى القلوب	وأيد اللحظ بالحور
من لم يكن طبعه رقيقاً	لم يدر ما لذة الصبا
فرب حر غدا رقيقاً	تملكه نفحة الصبا
نشوان لم يشرب الرحيقا	لكن إلى الحسن قد صبا

فعذّب القلب بالوجيب ونعّم العـــين بالنظر

وبات والدمع فى صبيب يقدح من قلبــه الشرر

عجبت من قلبي المعنى يهفو إذا هبت الرياح

لو كان للصب ما تمنى لطار شوقاً بلا جنـــاح

وبلبل الدوح إن تغنى أسهر ليلى إلى الصباح

عساك إن زرت ياحبيبى بالطيف فى رقدة السحر

أن تجعل النوم من نصيبى والعين تحمى من السهر

كم شادن قاد لى الحتوفا بمربع القلب قد سكن

يسل من لحظه سيوفاً فالقلب بالروع ما سكن

خلقت من عادتى ألوفاً أحن للإلف والسكن

غرناطة منزل الحبيب وقربهـــا السؤل والوطر

تبهر بالمنظر العجيب فلا عدا ربعها المطر

انظر إليه يصف هذا القلب الألوف الرقيق الذى يهفو إذا هبت الرياح ، ويسهر الليل إذا شدى شادن فوق الدوح ، قلب معنى يحتمل آلاماً ويرزح تحت أحزان . وكأنما الحزن قد أرهفه ، وكأنما قد وجد فى هذه الطبيعة يقظة لعواطفه لا سلوى .

كل ما فيها يستثير كامن القلب ويسرع به خفقات . كل ما فيها يقدح من قلبه الشرر ويجذب من العين الدمع هتاناً : قلب معذب بالوجيب وعين تنعم بالنظر لتبكى . ومناظر غرناطة هى السؤل والوطر ، وإن تكن منزل الحبيب فالحبيب ليس هو الذى يستأثر بقلب شاعرنا . إنه عنصر من عناصر الطبيعة هو الآخر . فغرناطة منزله ولكن ليس هو السؤل والوطر . وإنما غرناطة هى المنى ، هى التى تبهر بالمنظر العجيب ، وهى التى يدعو لها الشاعر بدوام المطر ، وهى التى تدور حولها الأمانى والآمال . ولكنه هو الذى ترك الوطن مختاراً تركه وراء غاية لا تبلغ إلا بالسفر : تركه وراء الأمل :

لولا تألق بارق التـــذكار ... ما صاب واكف دمعى المدرار

أمذكرى غرناطة حلت بها ... أيدى السحاب إزرة النوار

كيف التخلص للحديث وبيننا ... عرض الفـــلاة وطافح زخار

هذا على أن التغرب مركبى ... وتولج الفيح الفساح شعارى

فلكم أقمت غداة زمت عيسهم ... أبغى القرار ولات حين قرار

* * *

إنا بنى الآمال تخدعنا المنى ... فنخـــادع الآمال بالتسيار

نتجشم الأهوال فى طلب العلا ونروع سرب النوم بالأفكار

وهكذا حب غرناطة يشقيه ، وآماله هى الأخرى تشقيه . وهو يعرف أن الحياة خداع ، وأن التسيار فى طلب العلا إن هو إلا خداع النفس عن أمانيها وسلوى القلب عما يجد من حزن الحياة .

أما الأمل القريب من غرناطة فقد كان الأمل فى حفظها ملكة لايستذلها أحد . فانظر إليه كيف يمزج حب غرناطة بالأمل فى أن يحميها الله من الأعداء ، وانظر إليه كيف يصور بالدعاء إشفاقاً أحاط غرناطة فزاد جمالها ضياء وحياة :

عروسة تاجها السبيكه وزهرها الحلى والحلل
لم نرض من عزها شريكه بحسبها يضرب المثل
أيدها الله من مليكه تملكها أشرف الدول
بدولة المرتجى المهيب الملك الظاهر الأغر
تختال من بردها القشيب فى حلة النور والزهر

ثم يستمر ، لافى مدح الملك أو وصفه ، وإنما فى وصف جمال غرناطة . هذا الجمال الذى كان يحركه أبداً جمال الطبيعة . فلم

يقف شاعرنا بالطبيعة ليشبه على عادة أكثر الشعراء العرب ، وإنما وقف بها ليحس ويتحرك ويصف لنا ما تحدثه هذه الطبيعة فى نفسه من آثار . انظر إليه كيف يصور تجاوب الطبيعة الأول فى نفسه فى أكثر من لفظ وفى أكثر من موضع ، لا يريد أن يقول أكثر من أن الطبيعة تحرك فيه أوتار الحياة وتهزه وينفعل بها . يقول فى موشحه الذى مطلعه :

نواســـم البستـــان تنثر سلك الزهر
والطل فى الأغصان ينظمـــه بالجـــوهر

— :

قدحت لى زندا يا أيهـــا البـــارق
أذكرتنى عهـــدا إذ الشبـــاب رائق
فالشوق لا يهـــدا ولا الفؤاد الخافق
وكيف بالســـلوان والقلب رهن الفكر
وســـحب الهجران تحجب وجه القمر

انظر إليه كيف وصف هذا الشعور الحزين الذى تثيره فى أنفسنا مناظر الطبيعة الجميلة . قال هو تذكير بالشباب ، هو

رفع حجاب الحاضر ليرى الإنسان حياته كلها جزءاً من هذه الطبيعة تسير وتسير إلى نهاية . وإذا الشوق لا يهدأ . أى شوق ؟ شوق إلى هذا الماضى ، إلى الشباب ، إلى الحياة التى لا تسير إلا نحو النهاية . والأفكار تزدحم فى رأسه تثير الشوق إذا خفت ، وسحب الهجران ، سحب الأفكار الحزينة ، تحجب القمر وتضفى على جمال الطبيعة غشاء رقيقاً من الحزن فيزيدها جمالاً ورواء .

أو يقول :

أرقت لبرق مثـــل جفنى ساهرا
ينظم من قطر الغمـــام جواهرا
فيبسم ثغر الروض عنه أزاهرا

وصبح حكى وجه الخليفة باهرا   تجسم من نور الهدى وتجسدا

أو يقول :

وقلب إذا ما البرق أومض موهنا
قدحت به زنداً من الشوق واريا

. . . .

يضىء ظلام الليل ما بين أضلعى
إذا البارق النجدى وهناً بدا ليا

ولم يكن البرق وحده على قدرته فى انتزاع الالتفات إليه هو الظاهرة الوحيدة التى تجد من قلب الشاعر استجابة سريعة ، وإنما ريح الصبا إذا هبت تفعل ذلك أيضاً :

لم تهف بالقلب ريح الصبا إلا هبا

بل هو قد هفا للرياح وضاحك الزهر ، وطارح الحمام وساجل السحب ، حتى اضطر إلى أن يسأل الطبيعة الرأفة بنفسه التى تثيرها .

الله فى نفس شعاع كلما هب النسيم تطير كل مطار

وهو قد تأثر فى كل هذا أثراً حزيناً يثير فى النفس حبا غامضاً لحبيب لا يلتفت إليه الشاعر كثيراً . وتثير فيها أفكاراً حزينة تتمثل فى تذكر الشباب ، تذكر شباب ولى وهو لم يول بعد ، وإنما هو شباب حزين يحس جفاف المشيب يسرى فى ماء الشباب ويسمع أنات الموت فى غمرة الحياة . هو كالمتنبى يبكى على الشباب ولما يؤذن به شئ .

ولقد بكيت على الشباب ولمتى مسودة ولمـــاء وجهى رونق

ولكن الشاعر استطاع أحياناً كثيرة أن يخلص للطبيعة وحدها .

يصفها ويصف الحياة الحلوة فيها دون أن يعكر صفو ذلك بالكلام عن شيب وشباب . وإن يكن لم يستطع أن يخلص للفرح والحياة خلوصاً تاما . فقد شاب هذا الفرح آلام ، لا من شيب وذكرى فناء ، ولكن من أفكار حزينة تحف بالحياة لا تحقق للإنسان هناء ولا سعادة . وكثيراً ما يفعل ذلك عند ما يفعم الطبيعة حياة يأبى تدفقها أن يشير إلى الفناء . انظر إلى موشحه المعروف يصف فيه الطبيعة والخمر ، تحس دبيب الحياة يسرى فى أبياته ، لا بالموسيقى وحدها ، وإنما بما يصف من حركة وحياة :

ريحانة الفجر قد أطلت   خضـــراء بالزهر تزهر
وراية الصبح قد أظلت   فى مرقب الشمس تنشر
فالشهب من غارة الصباح   ترعـــد خوفاً وتخفق
وأدهم الليـــل فى جماح   أعنـــة البرق يطلق
والأفق فى ملتقى الرياح   بأدمع الغيث يشـــرق
والسحب بالجوهر استهلت   فالبرق ســـيف مجوهر
صفاحه المذهبـــات حلت   فى راحـــة الجو تشـــهر

كم ثم للصبـــا من مقيل　　بطيبه الزهر يشهـــد
والنهر كالصـــارم الصقيل　　فى حليـــه النور يغمـــد
ورب قال به وقيـــل　　للطير فى حـــين تنشـــد
فألسن الورق قد أملت　　مدائحـــاً عنـــه تشكر
ونســـمة الصبح قد تجلت　　فى ســـندس الروض تعثر

ثم يصف الكاس وما يثير فى نفسه من حياة وذكرى جمال ، وقد أوحت له هذه الطبيعة الحية الحياة ، ولكنها فى أوقات أخرى تثير فى نفسه الحزن الغامض الذى لا يستطيع أن يعبر عنه ، فيلبسه ألفاظ الغزل والحرمان والهجران ، وما هو بذلك ، كما كان الصوفيه يفعلون فى حبهم الإلهى ، وإن تكن معانيه بعيدة عن معانيهم كل البعد .

يا غصن بان يميل زهواً　　ريان فى روضـــة الشباب
لوكنت تصغى لرفع شكوى　　أطلت من قصة العتاب
ومن لمثلى يبيت نجوى　　للبدر فى رفرف السحاب
عزائم الصبر فيك حلت　　وعقـــدة الصبر تزخر
قدأكثرت فيك ما استقلت　　وليت لو كنت تشـــعر

كم ليـــلة بتهـــا وبتنا ضدين فى السهد والرقاد

أسامر النجم فيك حتى علمت أجفانهـــا السهاد

أرقب بدر الدجى وأنت قد لحت فى هالة الفؤاد

نفسى ويا ليت ما تولت دعها على الشوق تصبر

لو سمتها الهجر ما تولت ولم تكن عنـــك تنفر

فانظر إليه كيف يبدأ الموشح بوصف الصباح وقد نشر الحياة على الكون فى استحياء أول الأمر ، ولكنه استحياء قصير الأجل ، وإذا الحياة تنبعث انبعاثاً قويا ، وإذا ظواهر الطبيعة وقد سخرها الشاعر لتصور تدفق الحياة فى الأرض والسماء تقفز إثر غفوة الليل . ثم انظر إليه كيف يخلص من تصوير هذه الحياة المتدفقة إلى الكلام عن الصبا ، فترة تدفق الحياة الإنسانية ، ويخلط بين هذه الحياة الإنسانية وبين الطبيعة حولها ، تأخذ وتعطى وتتفاعل . فالطيور تشدو وكأنما تمهد بشدوها لمجلس شراب يصفه . مجلس شراب على ضفة النهر لا تحجبه عن الطبيعة جدران . والشراب يحلو ويثير فى النفس حياة تبدأ قوية ثم تهدأ ، وفى هدوئها حزن . حزن لا يستطيع الشاعر أن يحلله ويصوره

بأفصح مما صور الشعراء الهجر . إن الحياة قد ازورت بوجهها عنه وأشاحت ، وهو قد أحبها ولم يستطع أن يميت هذا الحب . كم بات ساهراً يسامر النجم معذباً لأن الحبيب قد هجره . أى حبيب هذا ؟ هو هذا الذى كان يلوح له عندما كان يجلس إلى المصباح يرى فيه نفسه قد شفها السقم ، ولكنها تضىء وسط الظلام . نجم يذكره بالشمس ، ومصباح ليعوضها ، ولكن هل نسى الشمس وهل عوضها حقاً . إنه يعرف الجواب ، والجواب يثير فى نفسه الأحزان . ولكن لابد من الصبر ، وهل يستطيع إلا هذا ؟ فدعها يا أيها الحبيب تصبر ، فليس لها إلى نسيانك أو إلى الاستعاضة عنك من سبيل .

ولقد طغى إحساس الشاعر بالطبيعة حوله على إحساسه بكل شىء سواها . انظر إليه كيف لا يدع مجالا ملائماً أو غير ملائم إلا انتزع تشبيهاته منها . فجمل الدميم بها وزاد الجميل جمالا . فخيل الخليفة إذا اندفعت نحو الأعداء كالكواكب تنقض من سماء قاتمة . والرياح تتدفق تدفق التيار وهى تحوم على الموتى كأنما هى طير أوى إلى وكره .

اتبعتها غرر الجياد كواكبا　　تنقض رجماً من سماء غبار
والهاديات يؤمها عبل الشوى　　متـــدفق كتدفق الأنهـــار

أزجيتهـــا شقراء رائقة الحلى فرميتـــه منها بشعلة نار
أثبت فيـــه الرمح ثم تركتـــه خضب الجوانح بالدم الموار
حامت عليه الذابلات كأنها طير أوت منـــه إلى أوكار

كذلك نرى الطبيعة حية فى ذهنه أبداً ، تمده بمختلف الصور الجميلة ، ليصف وليشبه . ولكنه إذا تحدث عنها ولم يرد من حديثه سواها نبض وصفه لها بالحياة وأحس نفسه قد غمرت بها . وهذا ما يفرد شاعرنا ويميزه . فالطبيعة عنده ليست من نوع البساتين نظمتها يد الإنسان ، وإنما هى الطبيعة الطلقة التى تستمد جمالها من حياتها الحرة ، ومن حركتها العنيفة أيضاً .

أما فى المدح فقد استطاع الشاعر أن يكسب فنه فيه حياة من الطبيعة موضوع شعره أبداً ، وأما فى الغزل فدأضاف إلى حرارة العاطفة وغموضها عنده صوراً من الطبيعة الحية ، فإذا هو يمثل الشوق والحنين فى صور مختلفة وأحوال عديدة ، ولكنها كلها تمتاز بالروعة والحياة .

٧

النغم

قال الشاطبى فى الإشارات والإفادات : « أفادنى صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله بن زمرك إثر إيابه إلى وطنه من رحلة العدوة فى علم البيان فوائد أذكر منها الآن ثلاثة : الفقه فى اللغة . وهو النظر فى مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب . ومن مثل هذا الوجه « قرم » و « عام » إذا اشتهى ، لكن لا يستعمل «قرم» إلا مع اللحم ، ولا يستعمل « عام » إلا مع اللبن . فتقول : عمت إلى اللبن . وكذلك قولهم أصفر فاقع وأحمر قان ، ولا يقال بالعكس ، وهذا كثير . والثانية تحرى الألفاظ البعيدة عن طرفى الغرابة والابتذال ، فلا يستدل بالحوشى من اللغات ولا المبتذل فى ألسن العامة . والثالثة اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه ، إذ المقصود الوصول فى بيان المعنى إلى أقصاه والإتيان بما يحصله سريعاً ويمكنه فى الذهن ، وتحرى كل صيغة تمكن المعنى وتحرض السامع على الاستماع . وأخبرنى أن كتّاب المغرب يحافظون فى شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ، ويذمون

ما عداها من طريقة المولدين ، وأنها خارجة عن الفصاحة ، وهذه المعانى الثلاثة لا توجد إلا فيها » .

لو كان هذا كل ما أفاد شاعرنا من رحلة العدوة فى فنه الشعرى لكفاه . فعلى انتخاب اللفظ الذى يؤدى المعنى يتوقف أساس الجمال الفنى . وقديماً أوصى أرسطو المتأدبين بنفس الوصية. والذى يلفت نظرنا أن أرسطو عندما أراد أن يبين للمتأدب كيف يختار الكلمة الجميلة فى كتابة الخطابة لم يقل إلا ما قاله ابن زمرك هذا، بل على نفس هذا الترتيب وإن يكن قدأدمج شرطه الثالث فى شرطه الأول . فاشترط أن تؤدى الكلمة معناها فى دقة باللفظ وبالصيغة ، ثم اشترط الشرط الثانى كما هو ، أى ألا تكون حوشية ولا مبتذلة.

وما كاد أرسطو يذيع شروط اختيار الكلمة حتى ردد النقاد من بعده تلك الشروط قروناً طويلة فلا نكاد نجد ناقداً رومانيًّا فى عصر النقد الذهبى عند الرومان قد خلت كتابته من الإشارة إلى هذه الشروط نفسها فى اختيار الكلمة . فهل وصلت صورة من كتاب الخطابة لأرسطو إلى أساتذة ابن زمرك فعلموه فضل الكلمة ؟ وقد نقلت خطابة أرسطو وشعره إلى العربية فى أكثر من صورة قبل زمان ابن زمرك . أم هل وصلت بعض هذه الكتب النقدية عن العصر الرومانى فى صورة ما إليهم ؟ ليس لدينا

ما يرجح أحد الفرضين . لأن قرب الأندلس من المدارس التى حفظت التراث الرومانى ورددته فى النقد وغيره، وحرص العرب على ترجمة كتب المعلم الأول، واهتمام ابن سينا وابن رشد بالذات بنقل صورة مهما تكن لكتابى الخطابة والشعر ، ثم جهلنا بأساتذة ابن زمرك وكتبهم ، كل هذا يجعلنا لا نستطيع أن نتخذ فى الموضوع رأياً .

والذى يعنينا فيما نحن بصدده أن ابن زمرك قد التزم هذين الشرطين التزاماً دقيقاً ، فامتازت ألفاظه فعلا بحسن الاختيار ودقته ، وامتاز لذلك أسلوبه بسهولة ورفعة ممتزجتين امتزاجاً جميلا .

وقد ساعد على سهولة ألفاظه أنه اتخذ لشعره موسيقى تتطلب يسر الألفاظ ، موسيقى الموشح بما فيها من تغيير وحياة . ولقد ألف الأندلسيون الموشح منذ نشأ أسهل لفظاً من القصائد العادية النظام . ثم تدرجت به السهولة حتى التقى عن قرب بالزجل التقاء طويلاً ، ولكنه ظل بمعناه ولفظه أرقى فى سلم الرفعة الأدبية درجات .

وخرج فن ابن زمرك الشعرى ممتازاً بأسلوب يعتمد على اللفظ الرفيع السهل والموسيقى الرفيعة السهلة ، فإذا هذا يكسب صوره الطبيعية كل ما يجب لها من جمال . فالطبيعة نفسها تمثل امتزاج السهولة والرفعة ، يراها كل الناس ويعرفونها ، ولكن لا يحسها إحساساً عميقاً إلا القلة الممتازة ، فمادتها سهلة عادية ، ولكن

ما تحمله من معنى وعاطفة ممتاز عير مألوف . لذلك صور الموشح بموسيقاه السهلة المتغيرة ولفظه السهل المنتخب ما لم تستطع القصيدة العادية بألفاظها المنتخبة وبحرها الواحد وقافيتها المطردة أن تصور . حتى الإحساسات نفسها التى تثيرها فى نفس الشاعر الطبيعة مهما تكن ، هى إحساسات تنبع من السهولة ، وتمتاز بالرفعة فى الوقت نفسه . فليس فيما توحيه الطبيعة تعقيد فكرة أو خطورة حال ، وإنما كل ما توحيه هو جلال وعمق لمعانى الحياة المألوفة العادية .

وكان ابن زمرك ذا مزاج موسيقى ممتاز ، حتى فى قصائده العادية النظام نراه يميل إلى بحر بعينه وقافية بعينها ، كما يميل المؤلف الموسيقى الممتاز إلى سلم من النغم بعينه يراه هو الأقرب إلى ترديد صدى العواطف التى تجيش فى صدره . انظر إلى هذه الملاحظة ممن لطخ تاريخ شاعرنا بالسباب . يقول ابن لسان الدين بن الخطيب فى معرض ذم الشاعر وفنه ، فقد كتب على هامش ترجمة أبيه الشاعر عند ذكر ابن الخطيب لقصيدة ابن زمرك (لولا تألق بارق التذكار) : « هذا الرجس الشيطان كثيراً ما ينظم فى هذا الوزن ويتبع حماره هذه الراء لا يتركها جملة ، إذ الرجل ابن حمار مكارى حداد ، فالنفس تميل بالطبع ، إلخ ». وكتب على قول الشاعر (حياك يا دار الهدى من دار) : «انظر

إلى كثرة تحريكه لحماره هذه الراء علقت له به مالخوليا » .

وسواء أكان ابن زمرك يستحق السب أو لا يستحقه فالذى أفادنا إياه هذا الشاتم أن فن ابن زمرك كان أوضح للناس مما تظن. فقد لاحظ معاصروه ميله إلى سلم موسيقى بعينه ، بل ميله إلى قافية بعينها . وهذا يدلنا على مزاج موسيقى فنى ممتاز ، قد هيأه لفن الموشح خير تهيئة ، وجعله خليقاً أن تختم به فترة حياته الممتازة فى الأندلس . لقد كان ابن زمرك يضرب على آلة موسيقية بعينها تعددت أنغامها واختلفت ، ولكنها تشابهت فى أنها تخرج عن آلة واحدة لها طاقة بعينها وميدان إجادة تتفوق فيه على غيرها .

كذلك لاحظ معاصروه شبهاً بينه وبين الشاعر المشهور ابن خفاجة . فمنهم من قال إنه كان خفاجى النزعة ، ومنهم هذا الساب بعينه الذى قال عن قصيدة من قصائده إنه سرقها من ابن خفاجة وإن يكن أبوه هو الذى نظمها له ! وليس يعنينا أيضاً أن نلائم بين قول هذا الشاتم ونسأله : كيف سرقها ابن زمرك وكيف نظمها له ابن الخطيب فى الوقت نفسه ؟ ولكن الذى يعنينا أيضاً هو لمح هذا الشبه من معاصريه ، شبه بين الشاعرين فى أنهما اتجها إلى الطبيعة فجعلاها مصدر الإلهام . ويكفينا هذا من معاصرى ابن زمرك . أما الفروق الواضحة بين فن الشاعرين وإن اتحدا فى الموضوع

فليس هذا مقام تفصيلها ، وإنما يكفى أن نقول إنها فروق تجعل هذا الشبه مجرد اتفاق فى المنحى لا أكثر من ذلك . فقد بعدت صورة الطبيعة نفسها فى شعر ابن زمرك عنها فى شعر ابن خفاجة ، فكيف بالحياة التى أضافها كل من الشاعرين إليها .

* * *

وأخيراً سار الزمن سيره الذى كان يهيج الإشفاق ويؤجج الأحزان ، وطوى صفحة هذا الشاعر آخر شعراء الأندلس ، وقد كان طوى صفحة ملكه من قبل . ثم أسدل الستار على أنغام الشاعر ، فحجب الصورة الفنية لتطالعنا من خلل القرون فيزيدها الماضى غموضاً وجمالاً ، وانتقلت صورة الشاعر الوزير والملك العظيم من عالم الواقع لكى لا تعود إليه إلى اليوم . أكانت أروع من أن تتكرر ؟ أكانت مفعمة بالحياة فلما تغلب الموت على فورة حياتها لم تجرؤ مرة أخرى على الظهور فقد استوفت منتهاها ؟ من يدرى ؟ ولكن حضارة إسلامية عربية ممتازة قد آذنت شمسها بالمغيب لتطلع فى أفق آخر وتدور فى سماء أخرى بعد طول الليل البهيم ، فسحبت تلك الحضارة فى غروبها أطراف الصورة ثم ألقتها فى الأفق فاطمأنت على سلامتها فى عالم الظلام والماضى وتلكأت قليلاً . . . ثم غربت الشمس .

